هيام علي بيومي



القاهرة قبل ثورة يناير بعام

اسم الكتاب: الدولفين

تأليف: هيام علي بيومي

الإخراج الداخلي: د. شيماء محمد أبوطالب

تدقيق لغوي: هدية علي

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الطبعة الأولى: 2023

رقم الإيداع: 23847 /2022

الترقيم الدولي: 978-977-86399 - 9-5





مزاج الكتب

ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

إهداء

إلى من أمسكوا بيدي ولم يتركوها حتى تلمّست موضع قدمي، إلى من زرعوا في قلبي إيمانًا بأنني لا بُد أن أُكمل المسير.

إلى من كانت لي رفيقةً وصديقةً وروحًا تملأ حياتي نورًا،

إلى الصديقة أنهار لطفي عبد الحميد.

الأخت الجميلة منال بكري جمعة.

الحبيبة أمل علي بيومي.

وإلى كل من زرع وردةً في بُستان غيره، وكان للقلب مؤنسًا وللروح رفيقًا..

إليكم جميعًا أُهدي هذا الكتاب.

الفصل الأول
"التشتت"

كان يومًا شــتويًا باردًا، على غير العادة في أول نوفمبر، ولم أكن يومها أرتدي إلا ملابس خفيفة لا تتناسب مع ذلك البرد، وقد دخل المعلم الفصل تسبقه رائحتـه الجميلـة التي هي خليط من الورد واليـاســمين، وقـد اتجـه المعلم بجســده الضـخم وملامحه الجميلة التي تجذبك رغم ضـخامة بُنيته، فقد كان وسـيمًا بحقّ، بل إنك تشـعر أنه مذيع لإحدى البرامج الحوارية، فقد كان طويلًا عريض المنكبين، رشــيقًا رغم ذلك، وله صــلعة جميلة، ووجه أبيض منير، وعندما تنظر في عينيه تجد اللون الأســود اللامع والابتســامة الجميلة تعلو شـفتيه المكتنزة، وقد نظر إليّ وقال بابتسامة:

- يبدو أن الجو عندكم ما زال حارًا!

ابتسمتُ وقلتُ له بتحدٍ:

- أنا أحب الشتاء، ولا أشعر بالبرد!

اقترب أكثر وقال بصوتٍ حنونٍ هامس:

- في الصــف الأول الإعدادي ولا تشــعر بالبرد! اطلب من أمك أن تعطيك ملابس ثقيلة من أجلي أنا حتى لا أشك في لياقتي! كما أنني لا أُحب أن أُصاب بالبرد عن طريقك.

ضحك المعلم بينما ارتبكت ولم أنطق! وماذا أقول!

رد صديقي "عادل" لأنه كان قريبًا كفاية ليسمع الحوار:

- أمه متوفاة!

تأثر المعلم لكلام عادل، وحاول أن يعتذر بعينيه قبل لسانه، لكنني لم أستطع تصنّع التماسك، فقد خرجت دموعي بوقاحة دون إذن مني لتعلنها صريحة، نعم أنا يتيم!

بعدها غيّر المعلم الموضوع، وقد طلب منا أن نكتب عن الفقر وتأثيره، وكيفية التغلب عليه! وقد صمتُ وأنا أدور بعيني حولي أتأمل تلك الوجوه الخالية من أي أثر للفقر، إنهم نخبة من أولئك المرفهين الذين ولدوا وفي أفواههم كل الملاعق الذهبية، وتساءلت كيف لهم أن يعرفوا الفقر ليكتبوا عنه؟

نعم إن الكتابة عن الفقر شيء صعب!

فكلنا يتخيل الغنى، ويُبدع في وصفه، لكن لا أحد يستطيع أن يصف الفقر ما لم يعشه! وأنا قد عشت فيه، وترعرع داخلي فأصبح يخنقني بل ويحتل مساحة تنفسي، ورغم كرهنا لبعضنا البعض يبقى متمسكًا بي، ولا أدري لماذا؟

يومها كتبت بعض قشور، فكيف أسكب نهرًا من المشاعر على ورقة ضعيفة لن تحتمل، فكتبت بحذر مشفق على تلك الورقة البيضاء أن يلفها الحبر الأسود ناسجًا خيوط الفقر، وقد أمسك الأستاذ موضوعي وبدأ يقرأه على زملائي،

"أنا "نور" زميلكم في الصف، ولا أعلم هل أنا في نعمة أم نقمة! ولا أقول أنني سعيد دائمًا بينكم، فأنا أخاف البيت وأخاف أكثر منه المدرسة، فهل تعلمون لماذا؟

سـأبدأ بالحديث عن بيتي المتواضـع الذي أسـتحي أن يراني فيه أحد، ولن أقول أنني لا أستحي من الفقر، نعم أنا أستحي من الفقر!
أستحي منه بشدة، فما الفخر ألا أملك ما يسد جوعي أو يستر أعين الناس عني!
ما الفخر في أن ألبس حذاءً لا تعرف لونه إلا بعد عناء!
يا سادة، إن كل ما في الفقر مؤلم، قاتل للروح خانق للكرامة.
آلاف الأسئلة تدور في رأسي كل يوم، وللأسف لا أجد من يجيبني! ولا يكون أمامي سوى الله أسأله كل يوم قبل نومي:
"يا رب، لماذا أنا فقير! ولستُ غنيًا مثل زملائي في المدرسة؟ ولماذا يتحتم عليّ أن أموت وجعًا لفقري، وهم يضحكون فرحًا وتباهيًا بأصناف طعامهم الفاخر الذي لا أعرف اسم معظمه، يا رب، لماذا يجب أن أُغيّر الموضوع كلما سُئلت ببراءة:
- لماذا لا ترتدي إلا حذاءً واحدًا طوال العام؟
وأين ملابس الرياضة؟ وأين.. وأين؟
ثم نظرت للسماء بعيون منكسرة دامعة وقلتُ:
- يا رب، سامحني حين أتوارى خجلًا حين أراهم يركبون سياراتهم الفارهة، لذلك أحرص على أن أكون الأخير دائمًا أو بالأحرى غير المرئي؟
لا أقول أنني أحبكم فأنا أخشى أنني أكرهكم جميعًا، كما أكره حياتي وضعف أبي حين أطلب منه أدوات للمدرسة أو أشياء بسيطة يتعامل معها أقراني بالصف على أنها أشياء عادية في حين أنها أحلام بالنسبة لنا نحن الغلابة، بل إن الفقر نفسه يستحي منا.

كل يوم أنظر حولي أتأمل صور المديرين والسادة والوزراء على الحائط الشرفي في طرقة المدرسة، وقد سألتهم سؤالًا واحدًا"
"يا من وضعتموني في مدرسة خاصة، لقد ارتكبتم جرمًا بشعًا في حقي، فهل الذكاء كافيًا لأكون هنا!"
ثم استدرتُ باكيًا مستندًا على الحائط والصور فوق رأسي كما عاشوا فوق أكتافي وقلت:
- ما بكم؟ لقد أدخلتموني عالمًا لا أستطيع الحياة فيه، وجعلتموني أرى ما كنت أظنه غير موجود، إنني أكرهكم.. نعم أكرهكم وبشدة.. وقد سئمت من تصنع غير ذلك، كما أكره فقري وحاجتي، وأكره كذبي حين أبحث عن حجج لأواري بها ضيق يدي وعجز أسرتي،
لكم أن تعتبروني كذابًا ومحتالًا، لكنني لم أكن يومًا كذابًا أو محتالًا ولا حتى متجملًا، بل أنا أريد أن أُصبح مثلكم فأملك أبسط درجات الإنسانية التي لم أكن أشعر بحرماني منها لولا وضعكم لي هنا!
ويبقى السؤال الذي يدور كل يوم في رأسي ليخنقها ويُغذي داخلها كل صوت أسود:
- لماذا أنا بين هؤلاء الذين لم نكن نراهم سوى خلف زجاج سيارتهم أو عبر نافذة قطار فاخر يمر غير مكترث بأمثالنا! نعم ماذا أفعل هنا بين الذين يفترشون الرصيف ليبيعوا بضاعتهم البسيطة التي في مجملها لا تصلح لتكون ثمن حذاء لأحد هؤلاء".
انتهى موضوعي وأعلم أنكم تتساءلون كيف لصغير أن يقول هذه الكلمات الكبير؟

لكني تقلّبت في شـــوارع الحياة، وهي بلا شـــك معلم بارع كما هي جلاد لاذع، ولقد كرهتُ الدنيا منذ تعرّض أمي لحادث أمام عيني، فقد تم دهســـها على يد سـائق متهور لم يرَ ضـعفها وحاجتها، ولم يحفل بأخي الصـغير تحمله على يدها يستمد منها قوته.

و لا أذكر ما حدث جيدًا، لكن كل ما أذكره هو صـــراخ من حولي وقطرات الدم تُغطي أمي الجميلة، كما أتذكر تغيّر لون أخي إلى الأصـــفر، واســـتمرت أمي ملقاة أكثر من سـاعة على جانب الطريق في انتظار عربة الإسـعاف، وأنا وأخي نصرخ ولكن لا مجيب،

وأتذكر أنني مددتُ يدي كثيرًا وقتها لتصـــل ليد أمي علّها تُمســـكها ولكن هيهات، فقد كان الفراغ هو ما احتضـــن تلك اليد المرتعبة، حتى أنني لملمت أخي من على الأرض وجلســـتُ أحميه بجســـدي ولا أعرف كيف اســـتطعتُ حمله!

وكيف كان المارة يمرون من حولنا يرمقوننا بنظرات الشـفقة والحزن، لكنهم سـرعان ما يعبرون ويحضـر غيرهم! ومن يومها أدركتُ أننا المنسـيون أو غير المرئيين.

حتى جاء أبي واحتضن أمي أو جسدها المنهك، وما أقساه من حضن!

وكان يغسل وجهها بدموعه، فاختلطت دموعه بالدم على وجهها،

ومن يومها لم أعد أحب الأحمر أو الأبيض أو غيره من الألوان، فكيف أحب الألوان وحياتي خالية منها؟

يومها نظرتُ إلى أبي نظرة لن أنســـاها طوال حياتي، ظننتُ عندها أن أمي ماتت جسديًا، وعلمتُ أن أبي لحقها نفسيًا.

وما أصعبه من موقفٍ! وما أقساه من يوم!

فقد ماتت أمي و مات معها عالم كامل داخلي، لقد سكنت عين أمي في حين اشتعل في قلبي بركان خامد، اشتعلت في قلبي نيران تكبر كل يوم فما زال مَن حرمنا منها يركب سيارته ويُشعل سيجارته، وينفث فيمن حوله دخانها، فصرنا بالنسبة له مثل هذا الدخان الذي سرعان ما ينتهي، ولقد حفظتُ ملامحه، وسأكبر لأنتقم منه، نعم سأنتقم منه ومن ذلك القاضي الذي أحفظ شكل عينيه وهي مليئة بالحقد والغضب مننا نحن الفقراء، ولم أنسَ ملامحه وهو يقرأ اسم القاتل مصحوبًا باحترام كبير ممدود لأبيه، وقد قالها براءة، ليطعن كل ما بقي من طفولتي:

- براءة، هل تتخيلون براءة!

أعلنها ليقتل داخلي كل براءة، وليكسر بها ما بقي في قلب أبي من حياة، يومها فقط أحسستُ برعشة تسري في جسد أبي، وحينها فقط خفتُ من كل شيء

هل علمتم الآن لماذا أخاف؟ لأن الخوف هو الرفيق الذي لا يخاف مني، بل يبقى معي مهما عدّت عليّ الخطوب."

التوقيع (صديقكم المُعذّب نور)

انتهت كلماتي التي تمنيت أن تنتهي معاناتي معها لكنها لم تفعل! بل بقيت النار مشتعلة وبقيت المعاناة تكبر بسرعة غريبة لتخنقني معها. بينما تأثّر زملائي لكلماتي بل إن بعضهم قد بكى من وقع الكلمات، وقد صفّق المعلّم وصفّق الجميع وقد ظهرت ملامح الإعجاب على المعلم فقال:

- يبدو أن عندنا "نجيب محفوظ" جديد، ما أحملك يا نور حين وصفت الفقر ومعاناة الفقراء، لقد أبدعت وسأُرسل موضوعك لمسابقة الإلقاء في الإدارة التعليمية. أشعر أنك كنت كمن يعيش الفقر بكل تفاصيله.

لم يكن المعلم يعي أنني لم أتخيل الفقر فعلًا، وكيف تتخيل ما تعيشه واقعًا كل يوم
وبعد يوم طويل وصــلتُ بيتي، وقد قابلني ابن عمتي "أيمن" أمام بيته (الذي تكفّلت فيه عمتي برعايتي مع أخي) فقد مرّ على فراق أمي زمن لا يمر، لم يذق فيه أبي طعم الراحة ولا نحن عرفنا فيه لون الفرح. وقد بادرني أيمن الذي كان صــغير الجســم كبير القلب، له عينان بنيتان واســعتان وشــعر أجعد بني لامع جميل، ولون ما بين الأســمر والأبيض حتى كأنه بطل فيلم هندي وســيم، لكنه كان فعلًا بطل حياتي ومصــدر فخري، حتى أنني أريد أن أصير رشيقًا ومحبوبًا مثله، وقد بادرني قائلًا بعيون تفيض حنان:
لماذا تأخرت يا نور؟
لم أُجب، لكني أســرعتُ نحوه وارتميتُ في أحضــانه لأهرب من هذا العالم، فهو صــديقي الوحيد فيه، و رغم فارق العمر بيننا، وهو ما جعلني ما أنا عليه فهو يســمعني ويتحمّل تقلباتي التي لا أفهمها، بل أحتمل الحياة لأنه يدعمني ويراني في حين لا يفعل الكثيرون.
نظرت في عينيه كما تعوّدت حينما أشعر بالتعب، لكني شعرت بشيء غريب لم أعهده معه، وعندما رفعت عيني لأنظر إليه وجدتُ دموعه قد ســقطتُ على خدي فتعجبتُ وخفتُ حد الموت وقلتُ له:
- ماذا يحدث ولماذا تبكي؟
- يا نور، أنت قوي، وأنا أعلم أنك لا تحتاج لأحد لتنجح في هذه الحياة.
قلت والدموع تسبقني وأنا أضربه بكل قوتي وعيون تكاد تموت خوفًا وكمدًا:
- لا لستُ قويًا، من قال لكم ذلك؟ إياك أن تتخلى عني كما يفعل الجميع.
رد بصوت مخنوق:

- ومن قال لك إنني سأتركك؟ بل سأكون على تواصل معك.
- لا أحتاج كلام الشــعارات ولا ألفاظ التلفاز ولا تقول لي مقدمات فأنا قد سئمت المقدمات، قل ما بك؟
رد بصوت لا أكاد أسمعه لصوت دموعه التي تطرق الباب على استحياء:
- وجدتُ فرصة عمل لإحدى الدول العربية وأعدك...
قاطعته وقلتُ وأنا أضربه بكل قوتي:
- لا أريد وعودًا من أحد! وكيف لي أن أطلب أن تعطيني الدنيا شيئًا!
إنها فقط تأخذ مني القليل الذي لدي، وكما أخذت أمي من قبل تأخذك اليوم مني.
ثم صعدتُ جريًا أحاول المرور بين أولاد الجيران على السلم، حتى وصلتُ إلى سريري المهترئ وألقيتُ بنفسي عليه، ورغم كل الأصوات من حولي فلم أسمع أحدًا، بل أُحاول أن أُفتّش عن بعض القوة داخلي فلم أجد شــيئًا بل فراغ موحش قاتل.
وأنا ألوم كل شيء حولي، بل وأكره كل من يقول إنني لا بد أن أتحمل ماذا أتحمل!
فقد جئتُ إلى الدنيا لأكون حملًا ثقيلًا على من أنجبوني، فكيف أطلب من الغير أن يتحملوني!
ومرت أيام تجنبت فيها الحديث مع أبي، ولا أعلم لماذا كنت ألومه؟
هل لأنه تزوّج أمي أصــلًا، وحرمها فرصــة أن تُنهي تعليمها الجامعي وترتبط بمن يهتم بها أكثر، ولا يتركها للفقر يتغذى على ضــعفها، أم لأنه أنجبني في حياة يغزوها العوز غزوًا حتى قد نخر كل عظامها؟
أم لأنني وأخي سندفع فاتورة ذلك الفقر الذي جاء أبي بنا إليه!

وبينما أُفتّش في نفسي عن سبب لأُعامل أبي كما أفعل -ولأبحث عن مبرر لكل تلك القســوة داخلي تجاهه- وجدت يدًا تربت على كتفي، وكان أيمن يطمئن عليّ ولم أكن أعرف أنها المرة الأخيرة.

فقلتُ له:

- من فضـــلك لا أريد وداعًا، فلتخرج من حياتي، فأنا لا أريدك، لا أريدك.

وبكل أصوات الكون صرخت.

تجمّع الأولاد ما بين متأثر لرحيل أيمن وبين من يحســده لأنه وجد فرصــة ليخرج من بوتقة الحارة ودائرة العوز،

فكم مرة تكررت القصة وكم تكللت تلك المرة بالنجاح!

فقد مروا بهذه التجارب من قبل، فمن يُجرّب حياتنا يعرف أن حياتنا متغيرة متقلبة غير ثابتة فمن يركب البحر عليه أن يتعلّم التعامل مع المفاجآت،

وبعد برهة هدأتُ فيها قمتُ وجريتُ إلى النافذة لأراه للمرة الأخيرة، لكنني لم أجده فجريتُ ونزلتُ الســلم مســرعًا حتى كان قلبي يسـبق خطواتي، وجدته يحمـل حقيبتـه ويخرج وظهره تجـاهي، لكنـه شــعر بي وأنـا أجري خلفـه، فاستدار وأمسك بي وكان يومًا قاسيًا جدًا حيث رحل وبقيت لي وحدتي.

نمتُ لا أعلم كيف نمت؟ ولا مقدار الهم الذي في هذه الليلة قد حملت؟

دخل علينا الفصل الأخصائي الاجتماعي الأستاذ حسن، وكان طويل الجسد نحيفًا إلى حدٍ ما، جهوري الصوت له شعر أجعد ووجه أبيض مُشرب بحمرة وعيناه تميل للون الأخضر وقد اقترب مني وقال:

كيف حالك يا نور؟

قلت له بخوفٍ وعيناي تتفحصه:

- نعم؟

- أقول لك كيف حالك؟ فتقول نعم!

- مرحبًا أستاذ حسن.

قال بكل حنانٍ وأحسستُ نحوه بشيء غريب، فقد كانت عيناه تحتضنني:

- أريدك بعد الحصة في مكتبي.

وفعلًا ذهبت والخوف يتملكني فوجدته يقرأ ملفًا ما، وحينما دخلت وجدته يقفز من مكانه قائلًا:

- لقد قرأتُ موضــوعك في التعبير، وأعلم كم أنت موهوب ومجتهد في كل المواد وقد قررت إدارة المدرسة أن تشترك في المسابقة الدولية في الرياضيات.

أحسستُ ببعض الهدوء في نفسي ثم

وجدتُه يكمل:

ســمعتُ عنك الكثير من معلميك، وذلك الكلام يؤكد أنك متميز لكنني ألاحظ أن مستواك لم يعد كما كان، وأريد لأن أسمعك.

قلت له وأنا أحاول أن أفتح عيني المتورمتين من بكاء أمس:

- لا أعرف ما يحدث لي، فحتى صديقي الوحيد سيتركني ويرحل،

ولا أعلم هل سيعود يومًا أم ستخطفه الغربة مني؟

رد بصوت محفز:

أريدك أن تتعلم أمرًا، الحياة قاسية لا ترحم وسواء كنت هنا أو في أي مكان فلا تتعشم في أحدٍ كثيرًا، واعلم أن كل من في حياتك عابرون راحلون.

- كل من في حياتي يتخلى عني.

رد بقوة لكنها مختلطة بشفقة وعطف:

- إذًا لا تعتمد سوى على نفسك، ولا تنتظر أحدًا بجوارك.

- هل تطلب مني أن أعيش وحيدًا؟

- لا، بل أطلب منك أن تكون قويًا بذاتك، ولا تضـع أحلامك بسـلّة وتُعلّقها على كتف غيرك بل اجعل سلّتك في رقبتك أنت، تعلّم ألا تتعشم كثيرًا فيمن حولك.

- هل أستحق ما يحدث لي؟

قام من جواري ونظر للنافذة بعض الوقت وقد لاحظت عرجه وهو يمشـي ثم قال وعيونه تنضح ألمًا: - لا أحد يستحق السيئين من حوله!

قلت وأنا مرتعب ألا يفهمني أو يشعر بي:

- أكره من حولي.

رد بحنو بالغ وقد بدأ يستوعب وجعي ويدرك أنني لست طفلًا كما يبدو على جسدي الهزيل، وأن العمر لا يُقاس بالأيام:

- كل الناس لها أعين، وهناك من ينظر فقط للأرض بينما هناك من يتطلع إلى جمال السماء وأنت من تُقرر أين تنظر!

- كيف تطلب مني الحب وأنتم أيها الكبار تفتقدونه؟ بل تستمتعون بالكره، فهنا حرب وهنا قتل وهنا سفك وتشريد؟

كيف تطلبون منا أن نعرف الحب وأنتم يكره بعضكم بعضًا؟

فحتى حين تصنعون لنا لعبًا تكون أسلحة وقتلًا ودمارًا؟

للأسف أنتم تزرعون الكره وتريدون أن نجني منها ثمار الحب!

ابتلعتُ ريقي وأكملتُ بنفس الوجع في كلماتي: - يا معلمي،

أنا أُشفق على حياتكم المريضة قدر إشفاقكم على حياتي البائسة بسببكم!

اقترب مني وقد التقت عيناي بعينيه فشعرتُ بهما تتوسلان أن أسمعه وقال:

- قرأتُ ملفك يا نور، ولن أقول أنه سـهل أن ترى موت أمك وأنت بعمر الزهور، لكن انظر إلى أبيك ما زال يقف بجوارك، وعمتك لم تتخلَّ عنك،

أما أخوك فهو يحتاجك بجانبه، وأمك روحها تشعر بك، و لا بد أن تجدك قويًا بجوارها.
لم أفعل سوى البكاء، وهو ما كنتُ أجيده.
اقترب مني أكثر ومسح على رأسي وأكمل:

- كيف تنتهي آمالك وما زال الطريق في بدايته!

وكيف تكون بهذا التشاؤم وأنت ما زلتَ صغيرًا؟
انظر لحالك، أنتَ لستَ مخطوفًا وأهلك ما زالوا يبحثون عنك؟
ولا رماك أبوك في الشارع بعد موت أمك لأنه لا يرغب في تحمّل مسؤوليتك؟
إذن فأنت في نِعم لا تراها، وحياة ما زالت أمامك ولم تنتهِ بعد، وستُقابل أشخاصًا وتتخذ مواقف لم تكن تريدها يومًا، فنحن هنا لا لنختار حياتنا بسهولة بل لنكافح واقعًا فُرض علينا.
بكيتُ ثانيةً ولكن هذه المرة بصوتٍ مرير، ولا أعلم لماذا أبكي بهذا الشكل الذي يجعله نحيبًا لا بكاءً!
لكنني لم أتمالك دموعي، وقد طلب مني أن أهدأ بعد أن حمل كرسيه ووضعه بجواري ومسح ثانية على رأسي ثم قال:
- للأسف أنت لا ترى سوى نفسك ولا تنظر جيدًا حولك.
- لا أحد حولي.
- أريد أن أُخبرك أمرًا ولكن بعد أن أحكي لك قصة لمن كانت ظروفه أصعب منك وتحمل حتى...
قاطعته قائلًا وأنا أقف أمامه وأنظر له بعيون كلها رفض لما سيقوله:
- لا أريد حكايا عن أحد، ولا أحب أن أسمع قصصًا نهايتها سعيدة، لأن حياتي لن تكون كذلك، فأنا أعيش في قصة لا تنتهي، فلا تقل لي إنني في نِعم،

وإنني لا بد أن أتحمل الجوع في حين أن من حولي يُلقون أصناف الطعام التي لا أعرف سوى ألوانها في سلة القمامة لأنهم يضجرون من تعددها في حين يقرصني الجوع قرصًا.

كيف أتحمّل كل هذا الكذب والتفنن في إخفاء ضعف لا أحب أن يراني أحد فيه!

لا تقل لي تحمّل وأنا أكره نفسي لأنني أُخفي عنهم حقيقتي حتى لا يسخرون مني أو ينظرون إليّ نظرة إشفاق وأنا أملك كبرياءً يقتلني حين يُصبح كل أحلامي أن أحصل على حذاءٍ جديد يحفظ قدمي ويُلملم كرامتي،

- يا نور، إن المال ليس الحل دائمًا، ونحن حولك ونحبك لأنك أنت وكما أنت.

- لكن المال هو الحل عندي لكل المشاكل، ويومًا ما سأكون غنيًا، بل غنيًا جدًا ولن أرحم من يقف في طريق حلمي.

- أنت صغير ولا تفهم الدنيا، فقط تحتاج الحب، تحتاج أن يشعر بك من حولك، ونحن نحبك.

- الناس لا تحترم سوى الغني أما الفقير فلا مكانه له عندهم ولا مراعاة لمشاعره لذلك أنا أكرهكم، بل أكرهكم جدًا، ولا أريد أن أكبر لأصير منافقًا مثلكم.

رد بقوة: أنت لا تعرف معنى ما تقول، وأنا متأكد أنك أقوى من ذلك، وستفهم يومًا أن المال أقل مشاكل الحياة، وعندما تتعلم الدرس ستدرك كم أنت قوي!

قلت بغضب: لا لستُ قويًا، من قال لكم هذا؟

تعجّب من جرأتي فصمت، أما أنا فأكملتُ كأن الأمر أصبح لا يعنيني،

فما أصعب أن تُقاتل شخصًا يائسًا ليس لديه ما يخسره! وأنا قد خسرت الكثير لذلك قلت له:

- أنتم الأغنياء تفترضون ما ليس واقعًا إلا في عقولكم حتى لا تروا أوجاعنا الحقيقية وتصورنا ضحكتنا الوحيدة وتكتبوا تحت الصورة ما أجمل الفقراء!

مسح على شعري مرة كأنه يعطيني بعض الأمان ولا يدري أن وضعي أصعب بكثير وقال:

- أنت تتوهم أن المال علاج لكل مشاكلك، وأن رائحة النقود تملأ الحياة عبيرًا، ولكنك للأسف مخطئ ومع ذلك مهما كنت يا نور، فأنا معك وسأدعمك لتصبح قويًا كي تفهم حقيقة من حولك وما حولك، وأعدك ألا أتخلى عنك.

رددتُ والدمع يسبقني:

- إنكم أيها الكبار تجيدون الكذب قدر إجادتكم للكلام، وأنا قد سئمتُ الكلام، ورغم صغري كما تقول إلا أنني متأكد أن هذا العالم قاسٍ ولا يرحم فإما أن أكون قرشًا أو تأكلني القروش و أعدك أنني لن أكون مسالمًا.

- نعم هناك القروش، ولكن هناك أيضًا الدولفين، انظر كم هو سعيد ويلعب ويغني، ولم ينقرض بل بقي رغم وجود القروش لأنه تعلّم التكيف وحب الآخرين، فحين يفترس القرش الناس يُلاعبهم الدولفين، فأيهما تُحب أن يكون بجوارك!

لا يتطلب الأمر أن تصير قرشًا كي تعيش، فقط تعلم كيف تعيش؟ عليك أن تحاول أن تخرج كل تلك القسوة من قلبك وأعدك أنك بعدها..

قاطعته وأنا أفرك يدي ببعضها بكل قوة:

- لا أريد وعودًا من أحد، ولن أكون مثاليًا بعد اليوم، كيف تطلبون مني أن أصير شخصًا لستم عليه؟

ولن أنتظر منكم شيئًا، فلتستمروا في نرجسيتكم المريضة، ولا تنظروا إلينا وإلى ضعفنا بل يكفيكم رؤيتكم لأنفسكم، ولتحتفظوا بنظرة الشفقة علينا ومصمصة الشفاه فلم نعد نحتاجها ولتريحوا ضمائركم التي لم تكن متعبة أصلًا، أما أنا فلن أطلب أن تعطيني الدنيا شيئًا،

وسأوجعكم جميعًا معي ولن أتصنع الابتسامة بعد اليوم، نعم لن أضحك في وجوهكم ثانية في حين أريد أن أخنقكم بيدي، أنت كما يبدو ولدت سعيدًا غنيًا فكيف تفهمني؟

الفصل الثاني
"السقوط"

خرجتُ جريًا، ولم أذهب لفصلي ولم أهتم بحقيبتي، بل كل ما فكرتُ فيه هو أنني سأتحرر منكم أخيرًا، وأخيرًا سألمس يد أمي وسأضحك عليكم وأنتم تتوجعون لرؤيتي!

وليكن رحيلي مؤلمًا بقدر ما كانت حياتي كذلك، ثم صعدتُ جريًا لأعلى مكان، نعم ليكن أكثر مكان مزدحم، ولم أُفكّر، وحتى لم أنظر للأرض، بل أغمضتُ عيني بعد أن صعدتُ فوق السور، أفتح ذراعي في الهواء، وأشعر أخيرًا أنني أتنفس ثم فتحتُ عيني مرة أخيرة بنظرة حاقدة شامتة فيما سأفعله بهم والصدمة التي ستؤرقهم، وعندها ابتسمتُ ابتسامة الموت ثم نظرتُ للسماء لأتأمل عيون أمي التي رأيتها تنظر لي حزينة لكنني لم أهتم بل مددتُ يدي لألمس يدها، ولكن عندها لم أشعر بشيء بل فراغ موحش خانق، وقد صمت فجأة كل شيء وهدأت الأصوات أخيرًا في رأسي، وشعرتُ كأنني وضعتُ رأسي تحت الماء حيث عالم آخر صامت، ولم أشعر بشيء سوى أنني وجدتُ نفسي فجأة أهوي داخل نفسي التي لم أجد فيها غير السواد وهو ما حرصت على تغذيته حيث طغى فاحتلّ ثم احتل ثم تسيّد، ليتحول داخلي إلى أرض خربة، وبعد تلك الرحلة المرعبة أخرجتُ رأسي من هذا السواد لأجدني أقف بين الأولاد أتأمل جثماني على الأرض والدماء من حولي، والكل يصرخ، ووجدتني لستُ كما تخيلتُ فلم أفرح لبكاء الأولاد، ولا أجد نشوة لصراخ الجميع من حولي بل وجدتهم مثلي متألمون ضعفاء،

وحاولتُ التكلم ثم جرّبت الصـراخ ولكن لم يسـمعني أحد، فقفزتُ لأحدّث معلمي فلم يلتفت إليّ بل كانت الصـدمة الكبرى فلا أحد يراني ولا أحد يسمعني كما هو الحال دائمًا ولكن بقي سؤال:

هل مت؟ هل يكون الموت هكذا؟

وجاءت عربة الإسـعاف لتحمل جسـدي وتذهب بي للمشـفى لكنني ما زلتُ هنا، أرى الجميع وأتحرك بسـهولة لكن لا يراني أحد، قمتُ خوفًا وجريتُ خلف السـيارة ووجدتني داخلها أتأمل جسـدي وقد تم تركيب كثير من الأنابيب والمحاليل،

ومن حجم الاهتمام علمتُ أن الموت ما زال بعيدًا وأنني ما زلتُ حيًا أو بالكاد أكون،

إذًا ماذا أفعل هنا؟

وصرختُ بكل قوة داخلي قائلًا:

- اتركوني أريد أن أموت! ولا مجيب لصـوتي، وعندها بكيتُ وتكوّرتُ على نفسي الهاربة من نفسي وقلتُ بعيون يائسة:

- من فضلكم دعوني أموت، أريد أن أموت!

ولكن أيضًا لم يسمعني أحد، ثم وصلنا للمشفى، وجلستُ على الأرض بجوار سـريري وكنتُ متفاجئًا بهذا الاهتمام من حولي، لكن توقّف كل هذا وتحجّر الموقف وهدأت كل الحماقات في نفسـي حين رأيتُ أبي وهو ينظر من زجاج الباب، وكان يلطم خده ويشد في شعر رأسه الذي ابيضّ أغلبه منذ زمن رغم صغره ، أما عينيه الضيقة الحزينة فكانت مليئة بنفس نظرة الانكسار التي خرجت من عينيه لتكسـو وجهه الأسـمر، ولكنه بدا هزيلًا وشـاحبًا جدًا،

وكأنني أراه لأول مرة مثل مومياء بشـــرية يابســـة، ولم تكن قدماه تقدر على حمله فسقط جالسًا على الأرض.

وهنا أحسـسـتُ بجرمي في حقه وخرجتُ واقتربتُ منه، لكنه كان قد اتكأ على الحائط ومدّ قدميه أمامه وقد خارت قواه، وعمتي الحنونة "مريم" بجواره تندب حظه ومصابه، فلم أحتمل أكثر فخرجتُ جريًا وكل ما كنتُ أُفكر فيه وأتمناه أن يكون كابوسًا أصحو منه.

ولم أعرف ماذا أفعل؟

ووجدتني أمام باب مدرســتي والأولاد ما زالوا ينصــرفون وكل منهم يتحدث عما حدث وكيف حاول ذلك الطالب الغريب الأطوار أن ينتحر، وبدأ الجميع في سـرد الحكايات عني وكان أغلبها قصـص لم أعرفها أصـلًا عن نفسـي، وقد عبر الجميع عن الأسـى على ما فعله ذلك المسـكين بنفســه، إلا "عـادل" صــديقي بالصــف والوحيد الذي كان يتعامل معي دون تكبر رغم الفارق المادي الكبير بيني وبينه، فلم يسـألني عن ملابسـي ولا نوع سـيارة أبي ولا أين سافرنا في الصيف، وقد وجدته صامتًا باكيًا لم يتحدث حتى كلمة واحدة إلى أن حضــر أبوه وكان رجلًا صــغير الجســم مُخيف الشــكل بل إنه أكثر من مخيف فهو رغم ضــآلة جســمه تجده غليظ الملامح جاحظ العين عريض الوجه، وعندما نظر ناحيتنا سـرت رعشـة في جسـدي، فهو يجعلك لا تشـعر بالراحة، وقد وركب عادل معه ســيارته الفارهة مثلما يفعل كل يوم، ومن خوفي عليـه وجـدتني معـه لم أفـارقـه، وكـان يجلس منكس الرأس حزين فحاولتُ أن أضع يدي على كتفه لكنها لم تكن تترك أي أثر ولم يشعر بي على عكسي، فلم أتوقع أن يتأثر لفراقي أحد،

فأنا كنت أراهم أثرياء لا مشاعر لهم تجاه أمثالي،

تعجّب أبوه من صمته فبادره قائلًا:
- ما بك يا عادل؟
- صديقي حاول الانتحار اليوم.
- خيرًا فعل، أنتم لا تقدرون النِعم التي أنتم فيها، فأنتم جيل فاقد الطعم واللون والرائحة، كم مرة قلتُ لك: إنكم لا قيمة لكم في هذه الحياة.
ثم رفع صوت الموسيقى وكأنه لم يكترث للدموع على وجه ابنه، ولأول مرة أرى ضعف عادل وأفهم صمته، ثم وصلنا لعمارة فارهة وتوقفتُ السيارة أمام المدخل ثم صعد الاثنان في صمت، وكأن الحروف تحتاج دهرًا لتخرج وصرخت في وجه الأب بكل قوتي لكنه كما توقعتُ لا يفهم ولا يسمع سوى نفسه، وحينما دخل الشقة قام عادل بخلع معطفه ووضعه بجواره فقد كانت يده ما زالت ترتعش، لكن أباه نهره بأنه لا ينفع في شيء ، وأنه ارتكب غلطة عمره حين تزوج بأمه وأنجب هذا الولد الجبان إلى العالم.
جلس عادل في غرفته حزينًا وقد جلستُ بجانبه أُحاول أن أُخفف عنه ما به، وما أوجعني وقتلني وحدته وغُلبه، وعدم قدرتي على أن أخبره أني ما زلت هنا وأنني معه، وبينما أُصارع حالي دخلت أمه وكانت ضعيفة البنية بيضاء الوجه نقية الملامح ولها نظرة تشبه سنابل القمح الذهبية ثم
قالت:
- هيا قد أعددتُ الغداء.
لكن عادل لم يرفع رأسه ولم يُجب، فاقتربت أمه منه وجلست بجواره وقالت:

- لو كنت أملك ساعة لإرجاع الزمن للوراء لغيّرتُ الكثير، لكنك تعلم أن أباك لن يتغير وعلينا أن نتحمل سوء طبعه وغضبه، فأنا أخاف عليكم التشرد.

- يمكننا أن نُحاول.

- تقصد تغييره؟

- لا بل أن نهرب من هنا ولنذهب لأي مكان.

- إن أباك له سلطة وسيجدنا في أي مكان نذهب إليه، وأنا أتحمل حتى لا يأخذكم مني وأُحرم منكم وتصبحون فريسة له.

فتحتُ عيني متعجبًا وتذكرتُ كيف حاول أبي كثيرًا معي وكيف يخطب ودي، وأنا ما كنتُ يومًا له جابرًا لخاطره بل قاسيًا متمردًا، وتعلمتُ بالطريقة الصعبة أن هناك فرقًا بين أن يُعطيك أبوك كل ما يملك ولو كان قليلًا وبين من يعطيك فقط القليل مما لديه!

ثم سمعنا صوت تكسير وصراخ ونزلنا مسرعين حتى أنني سابقتهم كأن الجاذبية لا تعمل معي وفوجئت بالأب قد رمى الطبق بالطعام أمام الخادمة غضبًا من لا شيء وقد تغيّرت ملامح أم عادل وحاولت تهدئة الوضع وحتى قبل أن تفهم ماذا يجري فدخلت خلف الخادمة وهي تُردد:

- لا تغضب فأنا سأؤدب هذه الخادمة.

ورأيتها تخرج من المطبخ مرتبكة، والأولاد حول المائدة ينظرون للأرض لا يجرؤن على النظر كأنهم قد تعودوا الوضع، فهربوا بعيونهم كما هرب الدم من عروقهم، ثم نظمت الأم الأطباق وكأنها تتجاهل ما يحدث، وأخذ الجميع يتناول الطعام في صمت مُطبق أو قُل خوف مسيطر، حتى عندما انتهوا لم

يتكلموا كلمة بل انتظروا حتى قام الأب، ثم صـــعدوا جريًا لغرفهم وكأنهم قد أدّوا واجبهم الثقيل. وحينها صـــعد عادل حجرته صـــامتًا لا يتكلم، وعندما تغلّب على حزنه حاول عمل فروضه المدرسية، ولكن ارتفع صوت
الصــراخ ثانية وبقوة هذه المرة حتى أن عادل قد وضـع سـماعات الهاتف في أذنه ورفع صـــوت الموســيقى ثم تمدّد على فراشـــه وراح في نومٍ عميق، وقد حاولتُ أن أنام بجواره لكنني لم أســتطع فكأنني أرى عالم غريب لأول مرة، فجلســـتُ كأنني أحرســـه أو لنقل أُشــفق عليه، ونام عادل رغم الأصـــوات العالية في الخارج فنزلتُ لأرى ما يحدث، فوجدتُ أباه يجلس يتصــفح هاتف في يده، ووالدة عادل تجلس أمامه كعصـــفور صــغير فقد عُشـــه واســـتمر يصـــرخ عليها ويســـألها: من هذا الذي رن على هاتفك اليوم فهو رقم غير مسجل؟

خرجت الكلمات من فمها مرتعشة حزينة تتلمس الرحمة لكن هيهات:

- إنه الأخصائي الاجتماعي الجديد في مدرسة الأولاد.

- لماذا يتصل بكِ أنتِ؟ ألا يعلم أن لهذا البيت رجلًا؟

- أراد أن يسألني أشياء عن عادل، وهي أمور عادية وروتينية لأي أم.

- روتينية! تقصـــدين مســـخرة وعدم تربية. ثم ألقى بالهاتف أرضًـــا واقترب وأمسك بشعرها وأكمل:

- من اليوم إذا علمت أنكِ تحدثتِ لرجل مرة أخرى فســـأقطع عنقك ولن أتردد ثانية.

حاولت الأم أن تتملص من يده، وكتم ألمها من أجل أولادها، لكنها لم تحتمل فصرخت ثانية، فجريتُ إليها، وقمتُ بالقفز فوقه وتسديد اللكمات له لكنه لم يتأثر فقد نسيتُ أنني أصبحتُ مثل شبح لا يُقدّم ولا يُؤخر.

في صـباح اليوم التـالي خرجـت من هـذا الجو الخـانق متجهًـا مع عـادل إلى المدرســة لكنه لم يتجه إلى الصــف مباشــرة بل إلى المكان الذي اعتدنا أن نجلس فيه، وهنـاك خلف مطعم المدرســة وجدنا "مصــطفى" ذلك الولد الأشـقر صـاحب العيون الزرقاء اللامعة والشـعر الذهبي الخصـلات، ولون البشـرة الذي يعكس أشـعة الشـمس فيكسـو ما حوله جمالًا، وكان يجلس ممسـكًا بفرشـاته وألوانه ويرسـم كما اعتاد كل يوم، وكانت رسـوماته فعلًا جميلة ومليئة بالفرح والحياة وأكثر ما كان يرســمه هي العصــافير بل إنها تتكرر كثيرًا في كل رســوماتـه تقريبًـا حتى أنني أظن أنـه يعيش في عـالم من العصــافير والورود لذلك اقتربتُ منه لأرى رســوم اليوم وقد بدأتُ أعتـاد حركتي كشـبح فأفعل ما يحلو لي دون اسـتئذان من أحد وكانت فعلًا جميلة ومريحـة وكأن مجرد النظر إليها يـأخـذك في عـالم خـاص بـك يجعلـك ترى نفسـك ملكًا، والكون صـفحة حسـن خضـراء، وأثناء انشـغالي بتلك الرسـوم وجـدتُ عـادل قـد جلس بجوار مصــطفى ثم حمل رســوماتـه بيـد وحـاول الطيران باليد الأخرى فقمتُ مسـرعًا وظللتُ أحاول الطيران مثله، وكان فعلًا وزني خفيف لدرجة كبيرة جدًا وقد قام مصطفى بإمساك يد عادل قائلًا:

- خذني معك هيا بنا نطير إلى آخر العالم.

ثم ضـحكنا جميعًا وفعلًا أحســسـتُ بسـعادة غابت عني منذ أن أصـبحتُ شــبحًا، لكن ما قطع ضـحكاتنا كان صــوت الجرس الذي يُعلن بداية يوم دراسـي فعاد الجميع للواقع المر يتجرعونه، وما أصـعب المر حين تعيش فيه ويعيش فيك!

بل يتغذى على روحك فيقتل فرحها رويدًا رويدًا.

دخلنا الفصل ومر يوم ليس ككل الأيام، فقد تمنيت ألا ينتهي اليوم، وعندما همّ الجميع بالانصراف وجدتُ "مصطفى" يُمسك ورقة ويكتب فيها عبارة ثم يطويها مُقبّلًا إياها ولقد كان الجميع منشغلًا بالخروج وكنتُ لا أريد أن أعود لبيت عادل أبدًا لذلك حاولتُ أن أعود للمشفى، وكان التنقل بين الأماكن مثل حلم سريع ووجدتني ما زلتُ ملقى على سرير المشفى، ولكني لم أجد أحدًا حولي، فعدتُ في ثوانٍ لبيت عمتي فاطمة وهو البيت الذي عشنا فيه بعد حادث أمي، وكنا قليلًا ما نذهب لمنزل جدي حيث يعيش أبي هناك أغلب الأيام، ويكتفي بالبقاء معنا أنا وأخي يومًا أو اثنين في الأسبوع، وكان الصمت هو ما يغلب على الجميع، ولم أرَ عمتي في بداية الأمر فأخذتُ أبحثُ عنها حتى وجدتها على سطح المنزل تُمسك بصورتي وتستند للحائط تشكي لربها ما بها، وقد لمحتُ دمعها يتساقط في أسى فاقتربتُ منها ولأول مرة أشعر أن هناك من شعر بي بل وأحس بوجودي، وكانت عمتي قد انتفضت عندما لمستها لكنها خافت وجمعت نفسها المبعثرة ثم نزلت لشقتها، وبقيتُ أنا أنظر للحَمام وألمسه، ووجدت الحَمام يتجاوب معي بل ويشعر بلمساتي، وكانت سعادتي لا توصف فأخيرًا شعر بي أحد، فجلستُ بين الحمام رافضًا الرحيل بل سعيدًا بالهدوء والراحة، وكنتُ متسائلًا:

- كيف لم أرَ هذا الجمال من قبل! وكيف لم أُقدّر حبّ من حولي لي!

فقد كنتُ أعتقد أنني بالنسبة لهم مجرد طفل يعيش بينهم، جُبروا عليه وجُبر عليهم، وبينما أتأمل الحَمام يطير في عنان السماء، وقد حاولتُ تقليده لكنني لم أقدر على الطيران، وعندها تذكرتُ مصطفى وكم كان يتمنى أن يرى هذا المشهد ليرسمه في لوحاته، ثم أغمضتُ عيني برهة لأجد نفسي أقف بجواره وهو في حجرته ينظر من النافذة على الحديقة حيث طفلان يلعبان

وتبدو منهما علامات السعادة والفرح على عكس مصطفى الذي لا تعرف السعادة ملامحة، وقد حاولتُ التذكر كيف كان مصطفى لكنني لم أتذكر شيئًا، فقد كنتُ أرى نفسي ولم أترك لعيني مساحة لأرى غيري، وبينما أنا سابح في خيالاتي وجدتُ امرأة كبيرة السن لكنها ما زالت جميلة كما أنها نحيلة الجسد وأكثر ما يُميزها هي العيون السمراء الواسعة وكانت مبتسمة وتقول:

- حبيبي لقد جاء وقت الدواء.

- لا أريد دواءً الآن. قالها مصطفى وهو غاضب.

اقتربت السيدة ومسحت على رأسه ثم أخذته إلى حافة السرير وجلست تقول:

- أنت الآن أصبحت رجلًا كبيرًا ولن أضحك عليك لكنك لن تصمد كثيرًا بدون أدويتك.

قال ببراءة:- هل يكرهني الله!

ردت بعطف وهي ما زالت تمسح على رأسه:

- لا، بالطبع يُحبك بل يُحبك كثيرًا.

- فلماذا جعلني مريضًا، أليس المرض عقابًا؟

مسحت دمعه ثم أكملت:

- الله يُحبك ويُحبك جدًا، وقد أخذ منك شيئًا لكنه أعطاك أشياءً أخرى، فلقد وهبك نعمًا كثيرة، فعندك عائلة تعشقك وأصدقاء يحبونك وذكاء يتمناه الكثيرون. كما أن الله عندما يحبنا يختبر هذا الحب أحيانًا بالمرض ليرى هل نبقى نحبه وندعوه رغم ذلك، إن الخير قد يكمن ويختبئ في الشر، وأنت عندك الكثير، فلتحمد الله على النعم الأخرى.

- لا أريد شـــيئًا، فقط أُريد أن أملك القدرة على فعل ما أريد، أريد أن أجري وألعب حتى يغمى عليّ من التعب.
قامت السيدة ثم وقفت أمام مصطفى ورفعت رأسه للأعلى قائلة:
- الحياة لا تقف عند مرض ألم بك، فما زال هناك الكثير لتفعله، لذلك دعنا نأخذ علاجك ثم ســأســتأذن والدك ونذهب معًا في زيارة ســريعة لمكان أعلم أنه سيسعدك جدًا.
تناول مصــطفى أدويته ثم ارتدى ملابســه، وعندما همّ بالتقاط الجاكيت وقعت صـورة على الأرض كانت على منضـدة بجوار السـرير، وعندها التقط الصورة بسرعة ومسح عنها الغبار بكم قميصه ثم قال:
- آســف يا أمي، ســأنتبه في المرة القادمة. ثم قبّل الصـورة وخرج من غرفته، وكنت معه أنظر إليه كأنني أراه للمرة الأولى في حياتي.
وجدنا الســيدة في انتظارنا وقد كنتُ متشــوقًا لأعرف من هي، فلم تكن المرأة التي في الإطار، لذلك تعجبتُ من اهتمامها بمصطفى ثم عبرنا الحديقة لنجد الطفلين ما زالا يلعبان بينما تجلس امرأة في الشـمس بجوار حمام السـباحة وهي تُقلّب في هاتفها، فلما رأتنا لوَّحت بيدها ثم ســرعان ما أكملت تصــفح هاتفها في غير اكتراث.
دخلنا مكانًا هادئًا منظمًا تشــعر أنه معزول عن العالم وكأن ليس به بشــرًا، حتى لمحنا في آخر الطرقة موظفة تكتب على جهاز لوحي أمامها وعندما اقتربنا قامت من جلستها ثم أسرعت نحونا مبتسمة محيّية مصطفى قائلة:
- أهلًا بالبطل لقد حدثتني عنك صديقتي "أمل" كثيرًا.
قال مصطفى ناظرًا لمن تُمسك بيده:
- ماذا قالت لها عني؟

أجابت السيدة ضاحكة:

- ما قلته سيبقى سرًا بيننا. ثم غمزت لصديقتها.

اصطحبتنا الفتاة إلى صالة واسعة حوائطها زجاجية وهي مليئة بالماء وبالكائنات الرائعة التي ما إن تراها حتى تُدرك مدى عظمة الله في الكون، لذلك كنتُ مبهورًا لدرجة أنني نسيتُ من هم معي، وأخذتُ أتأمل كأنني في أعماق البحار وقد قلتُ لنفسي:

- هل هذا ما يُسمى بمتحف الأحياء المائية الذي قرأت عنه في الكتب؟ أم مدينة ملاهي مائية؟ فقد كنتُ أول مرة أرى هذا العالم؟

بالطبع لم يُجب أحد لأن سؤالي لم يُسمع أصلًا.

انتبهتُ على منظر دولفين به عيب خلقي أو تعرض لحادث كسرت فيه زعنفته، فاقتربتُ لأتأمله عن قرب ووجدتهم جميعًا حوله قد لفت انتباههم أيضًا.

وكان الدولفين يرقص ويلعب بسعادة ظاهرة رغم ما به، وكانت أمه تهدهده وتُلاطفه بل إن كل ما في الماء كان سعيدًا بنا بقدر سعادتنا به، وكان الجميع مهتم بذلك الدولفين على وجه الخصوص لا أعلم هل لأنه مختلف أم لأنه سعيد بطريقته؟

ورأيتُ الابتسامة على وجه مصطفى الذي وعد ممرضته السيدة أمل أن يرسم لها لوحة جميلة، ثم مرّ الوقت سريعًا وحانت عودتنا للبيت وعندما وضعت أمل مصطفى في السرير رغم أنه ليس طفلًا لكن يبدو أن هذه عادة عندهم قالت له:

- أنت متميز يا مصطفى بطريقة ما، كما أنك فنان مبدع وستكون عظيمًا يومًا ما.

قال بحبٍ يفيض في كلماته وينطق من عينيه: هل تعرفين أن الجميل في مرضي أنه عرفني بك! فأنتِ لستِ ممرضتي بل أنتِ صديقتي!

احتضنت الممرضة مصطفى ثم صعدت بجواره على السرير، ونامت على ظهرها بجواره تنظر لسقف الغرفة التي تزينت بالنجوم وهي تدور بفعل ذلك المصباح السحري، وكأنك فعلًا ترى السماء والكواكب وقالت:

- انظر يا مصطفى لجمال السماء وكأن المنظر حقيقة مع أن الحقيقة أجمل.

قال مبتسمًا:- نعم، الله أعطانا أشياء كثيرة جميلة.

قالت وهي تمسد على شعره:- أنت أجمل نِعم الله.

- أخاف أن أموت مثل أمي.

اعتدلت نحوه ثم أمسكت بيده وقبَّلتها وهي تقول:

- لا يا حبيبي لن تموت، وستكبر وسأزوجك أميرة، و سأُربي أحفادك فأنا لستُ ممرضة في الأربعين كما يقول سني، فأنا معك أشعر أنني في قمة شبابي فأنت ابني الذي لم أُنجبه.

ابتسم مصطفى وقال مبتسمًا:

- أريد أميرة جميلة مثل التي في لوحاتي.

ثم صمت كأنه يخاف أن يحلم ثم أردف:

- ولكني لستُ أميرًا بل مريضًا!

اعتدلت أمل وجلست تقول في عزيمة:- من قال لك ذلك؟

المرض يا مصطفى، في القلوب وليس الأجساد، وأنت كما أنت ستكون أجمل أمير!

- انظري، لقد كتبتُ لك رسالة اليوم.

- أخذت الرسالة وقرأت بصوت عالٍ:

- أحبك مثل أمي.

دمعت أمل وقبَّلت مصطفى وقالت وعيونها تفيض عاطفة تفتقدها:

- أنت ابني وإن لم أنجب من قبل، لكنك.. ولم تكمل جملتها حتى أصـــابتني رعشـــة قوية، لا إنها رعشـــات متتابعة كمن يُمســـك به ســـلك كهرباء عار، ووجدتني فجأة في ظلام دامس لا أرى شيئًا، وظللت أصرخ وأصرخ ولا مجيب لصـوتي ولا صـدى لندائي، إنه فراغ أسـود موحش قاتل، كل ما فيه قاتل لا ألمس فيه أرضًا ولا أرى فيه سماء، بل شعور كالموت مع أني ما زلتُ هنا ونمت أو قل مُت، لا أعرف حتى وصـف شـعوري فقد أحسـستُ فلا قيمة لما له في حياتنا قيمة، ولا وجود لأي ثمين كنتُ أراه.

وشعرتُ باختناق كأنما تُنزع روحي نزعًا ولكن دون نهاية حتى قلت:

- يا رب.

يا رب وبكل قوة أمتلكها صرخت:- سامحني يا ألله.

وفجأة وجدتُ النور يتســلل إلى ظلامي رويدًا رويدًا، ونفســي أصــبحت أكثر هدوءًا من ذي قبل، وقد بدأت عيني تسـترد قوتها لكنني لم أعد كما أنا بل ما زلت شـــبحًا، لكنني الآن عرفت قيمة الحياة وأن نُعطي فرصًـــا ثانية لذلك لا أريد أن أموت،

إنني الآن فعلًا أحب الحياة، لكن الحياة ترفض أن تُصالحني بل وتصـر على أن يطول عقابي لوقاحتي من قبل.

بدأ يوم جديد وقد وجدت معلم اللغة العربية يقول للصف:

- أريـد من كل واحـد منكم أن يكتـب خطـابًا لزميلكم نور، فحـالتـه حرجـة ويخاف الأطباء أن تطول غيبوبته، لذلك اتفقت مع طبيبه المشـــرف على أن

تزوروه تباعًا، وتخبروه بمدى حبكم له ومن لا يستطيع الذهاب يكتب خطابه وسأحرص على أن أقرأه له بنفسي.

وهنا سألت نيجار:

- لماذا حاول أن يموت يا أستاذي! أليس الموت مؤلمًا؟

أحيانًا نشعر بالضيق والغضب من شيء ما ثم نحاول أن نُعبّر عن هذا الضيق لكننا لقلة خبرتنا قد نرتكب حماقات فتقع في هم أكبر ومشاكل أعظم.

قال مصطفى:- هل من الممكن أن نكون نحن سبب حزن نور، لكنني كنتُ أحبه.

صمت المعلم بعض الوقت وتعلّقت كل أعين زملائي به لكنه أخيرًا قال:

- لا نعلم بالضبط مقدار الوجع الذي كان يشعر به نور، ولا أظن أن لكم علاقة بما حدث له، فيبدو أنه كان يمر بمرحلة صعبة، ولكنه مهمًا كان لم يكن مبررًا أبدًا أن يفعل ما فعل، فعلينا أن نتحمل قدر الله ونصبر على ما ابتلانا به..

قال عادل:

- لقد كان صديقي المقرب. ثم بكى، وهنا قال مصطفى ثانية:

- كم كنتُ أحبه فهو يضحكني بشدة، ولقد رسمت له صورة هذا الصباح لأنني أريد أن يراها عندما يفيق، ولأنه يحب رسوماتي فقررتُ أن تكون صورة مبتسمة سعيدة. ثم أخرج لوحته ليريها للصف، فبكيتُ بشدة كأنني لم أبكِ من قبل في حياتي، ولكن هذه المرة دموعي مختلفة فلن يراها أحد ولن يشعر بها غيري وسألت نفسي:

- هؤلاء هم أصحابي حقًا فلماذا لم أرهم من قبل؟

انتهى اليوم، وقد تأملتُ لأنني أريد أن أظل بينهم للأبد، ووجدتني أذهب لأجلس في مكاننا الخاص أتأمل الخارجين الفرحين منهم بذهابهم للبيت، والشـــاردين في حياتهم والمثقلين بأحلامهم حتى انتبهت من تأملاتي فوجدتُ المكان قد أصبح هادئًا جدًا.

بل مخيفًا لأبعد حد، فحملت نفسي، وجريت لأجد صديقتي نيجار التي تُذكرني بأمي فهي جميلة في كل شيء بل إن جمالها نادر حيث جمال الروح والشكل، وقد كانت تحب أن تترك شعرها خلفها بغير أن تضع فيه شيئًا، وعندما تتحرك كان يهفو مع خطواتها حتى إنك لتشعر أنها ملاك من الجنة، وكانت ما زالت منتظرة مع المشرفة أمام باب المدرسة وعيناها متعلقة بالطريق تستجدي المارة ليكونوا هم من تنتظرهم واقتربت منها فوجدتها قد جلست لجانب الطريق وقد نظرت للأرض وكأنها تهرب من عيون المشرفة التي يظهر عليها التذمر وقد بادرت نيجار قائلة:- كل يوم هكذا تكونين آخر تلميذة منصرفة للبيت وكما قلت لك من قبل أن ابنتي تنتظرني في روضة الأطفال.

لم تتكلم نيجار بل لم تنظر أصلًا للمشرفة، وكأنها لا تملك إجابة أو تعرف حلولًا لما هي فيه، ثم مرّ وقت ممل بطيء حتى توقفت سيارة بها سيدة بكامل زينتها لكني أشعر أنها صغيرة على أن تكون أمها، وكانت مشغولة بإصلاح شعرها في مرآة السيارة ولم تنظر حتى لنيجار، بل كأنها إنسان آلي يؤدي مهمة ثقيلة،

ولم أعلم لماذا كنت أركب معهم؟

لا أعرف، إنني كأنني في حلم أنتقل بين الأماكن والأشخاص في تسلسل غريب أو في أحداث غير منطقية وكان أكثر ما يرعبني هل سأبقى كثيرًا هكذا أم سأعود قريبًا إلى حالتي السابقة التي لا أشتاق لشيء قدر شوقي لها.

مرت بنا لحظات طويلة غبت فيها في خيالاتي التي كنت فيها غواص ماهر أحيانًا وغريق فاقد الحول والطول أحيانًا أخرى، وبين هذا وذاك أتمنى أن أكون في كابوس مرعب وسأفيق منه قريبًا، وأخيرًا توقفت السيارة أمام بناء كبير متعدد الطوابق وقد نظرت للسماء لأرى أين ينتهي في حين كانتا تنظران للأرض، وبينما هممت بالصعود معهم إذا بتلك الرعشات تُعاود الظهور، ويمر شريط حياتي أمامي بسرعة غريبة بداية من أقدم ذكرى أحملها حتى وصلت إلى حادثة موت أمي وعندها لم تمر الذكرى بل كانت تدور المناظر حولي ما بين الدماء على وجه أمي وبين الصراخ يشق صدر أخي، حتى وصلت تلك الصرخات إلى طبول تدق أذني وفجأة ساد صمت عجيب وسواد مخيف، وعندها حاولتُ الصراخ أو البكاء ولكن لا صوت لي ولا دموع.

ووجدتُ ضوءًا خافتًا قد بدأ يشق الظلام من حولي ويزداد قوة حتى أنه حين وصل عندي كان شديد القوة لدرجة أنني غطيتُ وجهي، وعندها وجدتُ يدًا أعرف ملمسها قد لمست يدي وأخذت ترفع يداي عن عيني، وعندما فتحتهما لأنظر وجدتُ أمي وقد أصبح وجهها جميلًا كفتيات ديزني في أفلام الكرتون، وانحنت وقبّلت وجهي وهي تقول كما كانت تقول دائمًا:

- قُم، فأنت رجلي الصغير وأنت أقوى مما تتخيل.

ثم تحولت للنور مرة ثانية وأغمضت عيني فوجدتني في المشفى وما زال جسمي على سرير المشفى.

لكنني هذه المرة لم أستطع الرحيل بل لقد حدث شيء هذه المرة ولقد أصدرت الأجهزة أصواتًا عالية حضر على إثرها الكثير من الممرضات التي طلبت واحدة منهن من الأخرى لتُعلم الطبيب أن المريض مصاب بالتشنجات وبعض الحركات اللا إرادية ووجدتني غير قادر على الحركة بحرية كما السابق، وكان جسدي ما زال يتشنج لدرجة أنني تساءلت في نفسي هل أنا ميت؟ وهذا هو العذاب؟

وبعد محاولات استقرت حالتي وقد جلستُ بجوار جسدي بدون قدرة على التحرك كما السابق حتى مرَّ اليوم كله،

وجاء الصباح التالي لأجد عمتي تأتي وتُمشّط شعري وتُدلّك جسمي وتقول:

- كم أتمنى أن تعود للحظة فقط لأُخبرك كم أحبك،

وأنك لست فقط ابن أخ لي ربيته بل أراك أمل في تعويض الله لأخي، وقد فرحتُ بك منذ يوم أن وضعتك أمك، لقد فرحنا بك كثيرًا فقد كنت جميلًا كالبدر تشبه أمك كثيرًا، وعندما حملتك بين يدي دخلت قلبي، كما أن جدك يراك امتداد له، ورغم كبر سنة لا يكف يسأل عنك.

وأنا أتمنى أن تعود وصدقني لن أغضب منك، وحتى وإن غضبت وضربتك فأنا أعدك أنني سأحتضنك حتى تتوجع من الألم. وفعلًا تحتضن عمتي الجسد الممد ودموعي تتساقط على يدها وقد شعرت عمتي للحظة بدموعي لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- أعلم أنك تشعر بي، وأنك ستعود لنا قريبًا. وكانت هذه أجمل كلمات سمعتها منذ الحادث.

في اليوم التالي حضر الأستاذ "حسن" وكان يبدو مرهقًا محمّر العينين كأنه لم ينم منذ كثير، وقد حضر معه شخص آخر علمتُ من الحوار بينهما أن اسمه "نوح"، وكان نوح هذا طويل رشيق له غرة في مُقدمة شعره الأسمر

الناعم، وعيون ضيقة سمراء لامعة، ووجه يشبه طبقًا أبيض مستديرًا، وقد اقترب من سريري وهو يبكي، ولقد صُدمت من بكائه، فقد كنتُ أظن أنه لن يرثيني أحد وتعجبتُ من دموعه فقد كان أول لقاء يجمعني به فلماذا يتأثر لحالي هكذا؟

وتمالك دموعه وحاول إخفاءها حين دخلت الممرضة تتفقدني وتبسمت لحسن وقالت:

- هل الصغير قريبك؟

أجاب الأستاذ حسن الذي دمعت عيناه تأثرًا بالموقف، وقد ظننتُ عندها أنني لا محالة ميت وأنها فقط مسألة وقت:

- نعم هو قريبي، ويهمني أمره رغم أنه لا يُدرك ذلك.

استأذن ذلك الضيف وترك حسن وحده معي في الحجرة، وقد بدأ يتمالك دموعه

فقال لي بعد أن خرجت الممرضة:

- أخيرًا ستسمعني حتى وإن لم ترغب، وسأحكي لك حكاية ستُعلّمك دروسًا كثيرة أنت في حاجة إليها، وستُغيرك،

فأنا على يقين أنك ستخرج من غيبوبتك قريبًا لأنك أقوى، فأنا أعرفك رغم أنك لا تُعرّف نفسك، وستعدني أن تحكيها لأولادك،

ثم ضغط على يدي كأنه يأخذ مني الرد بالموافقة.

قام من جواري ونظر للنافذة كما يُحب أن يفعل ثم اتجه لجانب الغرفة، وقد وأسند ظهره على الحائط الملوّن خلفه، كأنه يستمد منه القوة، بينما جلستُ بجواره أتعلّق بعينيه الملونتين وبالطبع لم يكن يشعر بي أو يحس بسعادتي لوجوده.

قال:

الفصل الثالث
"ريم"

- في الماضـي كانت هناك فتاة جميلة اسـمها ريم، وكانت هذه الفتاة صـغيرة تلهو بدميتها البسيطة أمام البيت الذي يعمل به أبوها، وقد اعتاد فيه أبوها أن يهتم بحديقته وبينما كانت تلعب جاءت صـاحبة البيت وتأملت الفتاة وقالت:

- ما شاء الله فتاة جميلة ما اسمك؟

- أجابت بصوت حنون:- اسمي ريم.

قالت السيدة وقد اقتربت من العم سعيد والد الفتاة :

- أريدك بعد أن تنهي العمل.

تحت أمرك يا ست هانم. هكذا أجاب.

نامت ريم من التعب وقد غطّاها أبوها بردائه، ثم ذهب للسـيدة ليلى التي كانت تجلس في الحديقة تتصفح مجلة و قال:

لقد انتهى عملي اليوم سيدتي.

قالت ليلي وقد اعتدلت في جلستها:- كم طفلًا عندك يا سعيد؟

- خمسة أولاد وزوجتي حامل .

قالت في عجب: حامل في هذا السـن! فقد قلت لي من قبل أنها تخطت الأربعين.

قال سعيد:

ماذا أفعل فيها يا سيدتي، كم مرة نصحتها بالحذر من كثرة الانجاب، لكنها إرادة الله والله لا يُعطينا سوى الخير.

قالت ليلى: كم تُنفق على أولادك تثريبًا كل شهر يا سعيد؟

قال سعيد:- فضل الله علينا كبير، ونحن في فضل من الله ورضوان.

قالت ليلى:

- أنا لا أحب المقدمات لذلك سأقولها لك مباشرة. ثم التفتت للجهة الأخرى وهي تنظر ناحية ريم – أريد أن أشتري لابنتك بعض الثياب والأغراض، لذلك أريدك أن تتركها عندي يومين وسأراك جيدًا، ثم استدارت إلى سعيد لترى ردة فعله، وكان سعيد صامتًا مهمومًا لا يستطيع أن يستجمع أفكاره ولا يفهم ما هو مطلوب، لكنها لم تنتظر الرد بل قالت:- خذ وقتك في التفكير ثم أعلمني بقرارك.

حمل سعيد ابنته وعاد إلى بيته فوجد زوجته فاطمة _وكانت امرأة بيضاء الوجه دقيقة الملامح لها شامة على خدها، وأكثر ما يُميزها هو ابتسامة جميلة تحمل كثيرًا من البراءة، تشعر حين ترى ملابسها وبساطتها برائحة الريف المصري الجميل_ قد أقبلت نحوه ثم أخذت البنت منه ووضعتها في الفراش ثم جلست بجوار سعيد الذي بدا مهمومًا حزينًا ثم قالت له: - ما بك يا سعيد؟

قال:- السيدة التي أعمل عندها حديثًا تريد أن أترك لها "ريم" بضعة أيام.

تعجبت فاطمة وقالت وهي تتحسس بطنها المنتفخة:- ماذا تقول يا سعيد؟ وماذا تريد سيدة غنية من فتاة صغيرة؟

قال سعيد:- إنها لا تنجب كما فهمت من شكري البواب، وتُريد أن تقضي وقتًا مع ريم و....

قاطعته فاطمة وهي تتوجع من حملها وقالت:- إياك أن تُفكر... ولو كان عندي ألف ولد، فهم كبدي على الأرض ولن أُعطي قطعة من كبدي لأحد. ثم قامت وأحضرت دلوًا به بعض الماء وصبته في وعاء كبير وجلست بصعوبة على الأرض ووضعت قدم زوجها في الدلو وأخذت تُدلكها وتقول:

- عجبًا كيف يرى الناس الكبار الغلابة مثلنا! وكأن من حقهم أن يفعلوا بنا ما يريدون، أو أن عيالنا لعب يؤجروها متى يحبون، انظر يا سعيد، إياك أن تستنكر نعم ربنا عليك.

ردّ في تلطف وهو يرفع رجليه من الوعاء في تلطف:

- قد طلبتها مدة يومين فقط، وفي المقابل ستُعطينا بعض المال لنوفر لإخوتها بعض ما يحتاجون. ثم أخرج من جيبه مالًا وأكمل:

- انظري يا فاطمة، فهي تملك الكثير وتُعطي بسخاء، وأخشى أن أرفض طلبها فتطردني من العمل الذي لا أعرف غيره، فلا أُجيد سوى رعاية الزرع وأنتِ بحاجة إلى مصاريف الولادة.

ردت فاطمة بصوت مخنوق:

- ربنا موجود يا سي سعيد، ألم يكن يرزقنا لو لم تكن في حياتنا! أنا لا أخاف الفقر يا سعيد بل أخاف أن نتطلع إلى ما لا نملك، فنخسر أغلى ما عندنا، وربك كريم ولن ينسانا، فمن خلق هؤلاء الصغار سيرزقهم.

قال سعيد: - أنا تعبان قوي يا فاطمة.

قامت فاطمة وجلست بجواره ومسحت على كتفه، فَسَاد بينهما صمت وكأن كل واحد منهم قد ذهب بعقله لعالم خاص به.

وفي اليوم التالي استيقظ على صوت طرقعة شديدة فقام من نومه منتفضًا فوجد فاطمة في الصالة مرتبكة تُمسك ببطنها بيد بينما يدها الأخرى ترتعش

من الخوف فقد سـقط جزء من سـقف الحمام فجأة فجرى سـعيد نحو زوجته يسألها:

- هل أنتِ بخير؟

لم تُجب فاطمة بل الخوف على وجهها فعل، وأشـارت إلى حجرة الأولاد، فذهب سـعيد مسـرعًا يتفقد أولاده فوجدهم بخير، فاحتضـن أبناءه وقلبه يعتصر ألمًا.

إلى الظهيرة كان سعيد ما زال جالسًا والصمت سيد الموقف وعيون الصغار تحمل ألف علامة اسـتفهام، وفجأة قام سـعيد منتفضًا وأخذ بيد ابنته ريم وذهب بها إلى منزل السـيدة ليلى، وهناك قابل شـكري البواب، وكان شـكري رجلًا ضخم البنية كثيف الحاجبين وله شعر أجعد مع بشرة سمراء وملامح قوية حتى تحسـبه مصـارعًا يرتدي جلبابًا وكان يُمسـك بكوب من الشـاي، وطلب من سعيد أن يجلس معه لشرب الشاي وقد تجاذبا أطراف الحديث.

وكانت تلك محاولة من سعيد ليطمئن على ابنته فبادر سعيد بسؤال شكري:

- هل تعمل هنا منذ فترة طويلة؟

- أنا مولود في هذه المنطقة حيث كان والدي يعمل هنا عند هذه العائلة منذ زمن.

قال سعيد:- وهل تعرف السيدة "ليلى" جيدًا؟

- قل بالضـبط ماذا تريد يا سـعيد؟ فأنت منذ أن جئت هنا تبحث عن عمل وأنا أرى فيك طيبة كبيرة، ولولا ارتياحي لك ما أدخلتك للعمل هنا، فهم بمثابة أسـرتي، كما أنني لا أعرفك جيدًا، فكن واضـحًا وقل لي عما تبحث بكلامك هذا؟

رد "سعيد" متوجسًا:- السيدة تريد أن أترك لها ابنتي بضعة أيام، ولا أعرف ماذا تريد منها.

ضحك شكري البواب وقال:

- أتخاف من الست ليلى!

إنها أطيب خلق الله، ولقد حرمها الله الأولاد لكن رزقها طيبة القلب، ويبدو أنها أحبت ابنتك، فهنيئًا لك بالخير الذي ستُقدمه لك.

- العاطي هو الله.

- ونعم بالله.

اطمأنت نفس سعيد بعض الشيء ثم دخل يطلب مقابلة السيدة لتستقبله بفرح بالغ وتُمسك بيد ريم التي التصقت بأبيها، وكادت تدخل تحت عباءته فعلًا، ثم استدارت السيدة وقد طلبت من الخادمة أن تُحضر المظروف الذي على المنضدة في حجرتها، وأعطته لسعيد، ثم قالت وهي تُمسك بيد ريم الخائفة:

- لا تحزن يا عم "سعيد" فابنتك ستكون بأمان.

خرج سعيد وهو يحمل مظروف المال، لكنه لم يفرح به بل كان يشعر بالخزي والعار من هذا المال، وهكذا الفقر يجعلك تغض الطرف أحيانًا، وتخنق مشاعرك الجميلة أحيانًا أخرى، لذلك مشى سعيد ولا نقول أنه فرح بالمال بل كانت همومه جاثية على صدره كما هو الحال دائمًا، وأخذ يُفكّر، فأخيرًا سيُصلح سقف الحمام الذي طالما نبهته زوجته إلى اهترائه، وسيضمن أن زوجته ستجد مالًا لتلد بأمان.

وبينما هو في سيره غارقًا في همومه وجد طفلًا يرتدي ملابس قد جرّدها الزمن من ألوانها حتى غدا كلوحة قديمة تعكس ملامح الفقر والجوع، ومعه

فتاة أصغر منه يرثي وجهها الإنسانية المنتحرة تحت أقدام العَوز والحرمان، وقد حمل أكياس الليمون في يده، متفحصًا الوجوه من حوله فنظر لسعيد وأقبل نحوه وقال:

- عماه هل تريد ليمون؟

أجاب سعيد:

- لا، لا أريد شيئًا من هذه الحياة، فقد اكتفيت من حموضتها.

لكن الولد رفع يده بالليمون مصرًّا، وقد لاحظ سعيد أن الفتاة الصغيرة الممسكة بيد الفتى تُواري نظراتها بعيدًا خوفًا وحياءً، وما زال الفتى يُكلّم سعيد ويقول له:

- اشترِ مني يا عمي لأعود بالطعام لعائلتي.

وهنا لم يتمالك سعيد دموعه التي كانت فقط تحتاج لمن يفتح لها الباب، فوضع يده في المظروف، و أخرج عملة ورقية كبيرة ناولها للصغير الذي كانت كل أحلامه بضعة جنيهات، فشكره الولد متعجبًا من كرم هذا الغريب، رغم مظهر الفقر على ملابسه، ولكن من ذا الذي يشعر بالفقر سوى من خاض فيه وذاق للرأس مرارته!

وصل لبيته بصحبة السبّاك وعامل البناء، لكن فاطمة لم تنظر سوى ليد سعيد وكيف هي فارغة من كف ابنتها، وفهم سعيد خوفها فهرب من عينيها متجاهلًا تلك النظرات القاتلة.

ولعلك تتساءل هل بكت ريم عندما غادر أبيها؟

لا، لم تبكِ، فقد انشغلت بالملابس الجديدة واللعب التي لم ترَ مثلهم في حياتها، فكانت سعيدة بحقٍّ ولم تدرِ ما سينتظرها؟

مر اليومان وكان سـعيد ينتظر الوقت بلهفة بل بجنون، فلو ملكتَ ألف طفل بل مليون يبقى الولد ولدًا والحلم باحتضانه رفيقًا.
أقبلت ريم نحو والدها تشع ضوءًا وجمالًا، ولماذا لا تفعل؟
فقد اكتست الملابس من براءتها رقةً وجمالًا.
ضمّ سـعيد ابنته وقبّل كل جزء في وجهها، بينما ليلى تُشـاهده وتغبط هذه النعمة التي بين يديه، ثم اسـتدار إليها وأشـار ملوحًا لها بذراعه ثم حمل طفلته وانصرف.
اعتدل حسن في جلسته وقام واقترب من سريري وأكمل:
- لعلك تتساءل أيضًا، كيف هي قُبلة الفراق؟
لكنني شـردتُ ببصـري وسـرحت بخيالي علَّني أشـعر ولو مجازًا بلمسـة من حولي وكانت لمسـة مِن يد مَن يُحبونني قد أُقايض بها الكون كله، وكيف أنني تنازلتُ بكل حماقة عن كل تلك القلوب الجميلة، وكنتُ كثير الصمت أعيش في أحلام اليقظة أكثر من الواقع فما جدوى العيش في واقع مر يأكل من نفسك كل يوم!
وحين تفتح عينيك على غابة، تتمنى أن يكون كابوسًـا مهما بلغت شـدته سيمر عليك مرور الكرام، أو هكذا كنتُ أتخيّل، فلم أرَ سوى نفسي ونفسي فقط.
أخيرًا انتبهت على صوت الأستاذ حسن يقول:-
انقضـى اليوم وعم سـعيد ما زال على فراشـه، فقد كان يئن ألمًا لما به من أوجاع نفسـية وجسـدية، ولكنه يحرص على أن يكون أنينه مكتومًا مخنوقًا مثل كل شيء في حياته، لكن "فاطمة" اقتربت منه وهمست في أذنه:
- أنا معك ولن أسمح لأحد أن يؤذي أطفالنا أبدًا.

تأثّر سعيد لكلام فاطمة وقال:

- أعدك يا فاطمة أن أُغيّر حياتي وسأبحث عن عمل آخر وقريبًا سأخبر شكري أنني لن أعمل عندهم ثانية.

توقف الأستاذ عن الحكاية وقال:

- لقد تأخر الوقت يا نور لكنني أعدك أن أحكي لكِ غدًا بقيتها.

خرج حسن وتركني وحدي، ليلة كاملة أراجع فيها حياتي، وكيف دمرتها في لحظة تهور. لقد كانت ليلة لن أنساها أبدًا حيث لا صوت سوى صوت الأجهزة ولا ملمس سوى طعم الوحدة وشبح الموت يطل عليك من سقف الغرفة شامتًا.

في اليوم التالي وجدتني في المدرسة ولا أعرف كيف جئتُ وكأنني أتحرك على غير رغبة مني ولا أمر، وقد وجدتُ زملائي في حصة اللغة العربية، وكان المعلم يطلب منهم كتابة موضوع تعبير عن الأم فتجمعت الدموع في عين مصطفى رغم حرصه على إخفائها فقد كان لا يُحب أن يراه أحدًا ضعيفًا أبدًا، لذلك أمسك بالقلم وحاول أن يتذكر بعض الجمل المعتادة التي يُرددها الأولاد في مثل هذا الموضوع لكنه شعر أن قلمه عاجز وعندما كان الأستاذ يمر لم يجد مصطفى يكتب فسأله:

لماذا لا تكتب يا مصطفى؟

ألا تملك ما تريد أن تقوله لأمك؟

أجاب والدموع تسبقه:- بل أملك الكثير، ثم قال في نفسه:

- ولكن أين أمي؟ أين أمي؟

ثم خرج هاربًا من الفصل دون إذن من معلمه، ثم اتجه إلى حديقة المدرسة وألقى بجسده على الأرض ناظرًا للسماء وهو يقول:

- يا رب أنت من حكمت عليّ بما أنا فيه فساعدني لأتحمله، يا رب أتمنى يومًا واحدًا مع أمي، ولن أطلب شيئًا آخر في هذه الدنيا.

كان كلام مصطفى كالسكاكين تطعن في قلبي، وكم أكره هذا اليوم الذي يتكلم فيه الجميع عن الأم وهي بينهم وينسون في نفس الوقت أنهم يطعنون بكلامهم في جرحٍ نازف أصلًا لمن فقد أمه، يا ليتهم يلغون هذا العيد ويتركون جروح المتألمين لحالها.

مرّ وقت ليس طويلًا حتى انتهت الحصة، وحضر المعلم وجلس على الأرض بجوار مصطفى وقال:-

آسف لم أقصد أن أوجعكِ بكلامي فلم أكن أعلم.

- لا يهم، لقد أصبحت بخير، ثم تجنب النظر في عيني المعلم و قام وانصرف وفضّل الصمت الذي يحكي الكثير من الوجع.

وقفتُ في فناء المدرسة أدور حول نفسي وأصرخ بصوتٍ عالٍ، وعندما بح صوتي ولم أجد من يسمعني _وهيهات أن يحدث_ ارتميتُ على الأرض وأغمضتُ عيني أُحاول أن أُغيّر هذا الوضع، ولو بالهروب من المكان ولكن لم أفعل، بل وجدتني في مكان عمل أبي وكان يطلب من المدير سلفة مالية فتجهم المدير وقال:

- أعلم أن زوجتك قد تركت لك حملًا وأن ابنك مريض، لكنك تخطيت الحد المسموح به للاقتراض وأعتقد أن راتبك يذهب كله لتسديد الديون، وأنا لا أملك أن أتخطى القانون، فحتى لو كنتُ مديرًا فأنا ما زلت موظفًا وهناك من يُحاسبني.

خرج أبي وكان شــاحب الوجه مهلهل الملابس، وقد هربت كل مظاهر الحياة من ملامحه، وكان يمشي كأنه يتعلم المشي أو لا يستطيع، لدرجة أنني حاولت أن أُمسك بذراعه وأن أُخفف همه وكان صامتًا صمتًا قاتلًا، ورأيتُ كم كنتُ جبانًا وأنانيًا لدرجة كبيرة.

وصـــل أبي للبيت وهناك وجد جدي متكورًا على تلك الكنبة القديمة في الصالة، وعندما رأى حالة أبي تحامل على نفسه واعتدل وقال:

- أعلم يا بني أن الحمل قد زاد حده، والله يا بني إني أتعجب كيف يفعل ابنك ذلك وأنت في هذه الظروف، وما يحزنني أننا لم نعلم أنه مخنوق إلى هذا الحد.

تكلم أبي بعد صمت وقال:

- الحمل ثقيل عليّ يا أبي، ومرض الصــغير يبتلع كل مليم معي. وبكى ثم قام ووضع رأسه على فخذ جدي وأكمل:

- أخاف ألا أستطيع أن أُكمل المشوار.

- دعنا نُخبر أهلها، أو نطلب حقها، فهي لها حق يا بني.

- انتفض أبي وقال:

- لا، ولو بعت جســدي قطعة قطعة، لن أجعل أولادي يحتاجون إليهم أبدًا، ولا أريد ذلك المال الملعون.

فكرت عندها وقلتُ كيف يكون هناك مال وحق لأمي ويتركه أبي بهذه البساطة وهو في هذه الحالة، أنا حقًا لا أفهمكم أيها الكبار، لا أفهمكم أبدًا.

دخل جدي وأحضــر قلادة ذهبية كان يلفها في قطعة قماش ومن شــكلها أحسست أن لها قيمة عنده.

قال جدي:

- خذ يا محمد هذا العقد وبعه، لتفك به ضائقتك.
- عقد أمي!
- لا أظن أمك تعترض على بيعه، كما أنها ستفرح في قبرها عندما تكون بخير.
مد أبي يده يأخذ العقد وكانت يده ترتعش، وعندها لم أتحمل أكثر فأغمضتُ عيني حزنًا وضيقًا من نفسي، وتمنيتُ أن أضم أبي إلى قلبي ولكن عادت التشنجات، ووجدتني في المشفى والأستاذ حسن بجوار سريري يتحدث إلى جسدي، وقد تعجبت كيف له أن يُحافظ على وعده ويترك كل شيء ويحضر ليراني، كيف يُعطي البعض للآخرين أغلى ما يملكون في حين يكون الآخر أنانيًا ولا يستحق!
كيف يُعطيني هذا المعلم من وقته ليخفف عني أو لعله يمنحني بعض الطاقة لأكمل بينما لم أُعطه سوى الكلمات الموجعة! ولكني أشعر أن هناك شيئًا لا أعرفه يتعلق به ولا بد أن أفهمه.
عجيبة هي حياة الكبار فهم يحرصون على جعلها معقدة مع أنها أسهل مما يظنون وكثيرًا ما نتخيل أننا نفهمهم، يبحثون عن طرق لكسر الباب مع أنه قد يكون مفتوحًا أصلًا.
لقد اكتفيتُ منكم أيها الكبار واكتفيتُ من نفسي ولو ملكتُ الأمر لقتلتها ألف مرة، فلقد عرفتُ أن معركتي داخل نفسي فجلستُ كما جلس أبي عندما رآني، وارتميت على الأرض بجوار هذا المعلم لأفهم أكثر فقد تكلمتُ كثيرًا في الماضي، وحان الوقت لأُنصت أكثر.
قال في نبرة ثقة وهو يتحدث لجسدي الممدد بلا حول ولا قوة:

- هل تعلم أنني حلمت بك بالأمس، وكنت تلعب معنا في مباراة لكرة القدم وقد تعافيت بالكامل لدرجة أنك قد سجلت ثلاثة أهداف؟ ثم ضحك وأكمل:

- لا تغتر بنفسك كثيرًا فقد خسرتم رغم ذلك، هل تعلم لماذا؟

لأننا سددنا في شباككم أكثر من ذلك، وعندي ثقة أنني سألعب معك مباراة، لكنني لا أعدك أن أدعك تغلبني أبدًا، ثم صمت بعض الوقت لكنه أكمل:-

- اليوم سأكمل قصتنا، وأنا حريص على أن أكملها بأقصى سرعة قبل أن تسترد وعيك حتى لا تُقاطعني وتسحلني بكلامك الكبير، ولا أعلم من أين تأتي بهذه العبارات الرنانة، ولو طلبت نصيحتي لقلتُ لك ترشح في مجلس الشعب أو لتشتغل بالسياسة، فلا ينقصك أي من مؤهلاتها.

أما عن ريم فأقول أن قصتها قد تطوّرت بسرعة، فبعد مدة ليست طويلة لم يجرؤ فيها سعيد أن يترك العمل، فهناك أفواه كثيرة عليه أن يُطعمها، وقد طلبت السيدة هذه المرة من سعيد أن يحضر ريم لها لتقضي معها إجازة العيد، ورغم رفض سعيد من داخله لكنه قال:

- ربنا يسهل يا ست هانم.

خرج سعيد يلوم نفسه أنه لم يرفض طلبها بصوت عالٍ، ولأنه لم يخبرها أنه لن يأتي للعمل ثانية، ولماذا خاف أن يتكلم والأرزاق بيد الله، لكن القدر كان له رأي آخر، وكأن الدنيا تأبى إلا أن تقف له معاندة مترصدة، فعندما وصل بيته وجد الأولاد يخبرونه أن أمهم قد حاصرتها آلام الولادة، وأن الجيران أخذوها للمشفى، وهناك وجد سعيد الممرضة تُخبره أن زوجته بخير، وأنها ولادة مبكرة، وأنها وضعت طفلًا جميلًا، لكنه بحاجة لدخول حضّانة لأن نموه غير مكتمل وهناك خطر على حياته، وبكل براءة قال لها:

- وما المانع؟ أنا موافق.
ابتسمت الممرضة بوجع وقالت:
- الفكرة ليست في موافقتك أو من عدمها يا حاج، بل في أن تضع مبلغ تأمين قدره خمسة آلاف جنية، وإلا لن يدخلوا الوليد فلا مكان في الحضانة المجانية، ثم أعطته رقمًا يتواصل مع الموظف المسؤول وأمامه فقط ساعة واحدة لتدبير المبلغ.

حمل سعيد الرقم ودخل ليرى زوجته وكان من حوله يهنؤونه بالمولود، لكنه بدا كأنه في عالم آخر أو هبط من الفضاء فلا هو يسمعهم ولا يفهمون ما يدور به، وكان كل همه هو تفادي عيون زوجته حتى لا يُخبرها ولم تكن عبارة "ما باليد حيلة" التي يُرددها لها تنفع هذه المرة فهناك روح بريئة معلقة بمبلغ لم يملكه طوال حياته وبالطبع لا يملكه الآن، وحانت منه نظرة من شباك السلم،

فقد خرج مسرعًا يختنق بهمومه، ولم يشعر سوى بنفسه وهو يخرج رأسه من شباك على سلم المشفى يبحث عن بعض الهواء ليتنفس فقد أصبح الهواء لا هواء فيه ووجوه الناس من حوله وهم ينزلون السلم والهموم تُرسم بألوان الوجع كل أشكال الفقر والعوز، نعم فيبدو أن الفقراء يشعرون ببعضهم لكنهم لا يتكلمون أو يتكلمون مواساة وهي كل ما يملكون، أما عم سعيد فتمالك نفسه وأصبح لا يدري ماذا يفعل؟ فحتى لو سافر لبلدته ليطلب المبلغ من "سيد" نسيبه فلن يسعفه الوقت للعودة، وحياة الصغير المسكين على المِحك، فأسرع وذهب لبيته وكان في حالته تلك بين الخوف والرجاء، ولم يملك دموعه حين أمسك بيد الصغيرة "ريم" وخرج بها قاصدًا الحي الراقي، وعندما سلمها للسيدة وحكى لها ما يحدث له، فطلبت منه

الانتظار بضــعة دقائق ثم عادت بالمبلغ بمنتهى الســهولة فنظر للمال كأنه الحياة والموت أيضًا، لكنه لم يملك الجرأة ليُصافح الموت ولا ليقبّل الصغيرة هذه المرة، بل خرج هاربًا حتى أنه لم يُلقِ الســلام على شـكري وهو خارج كأنه لا يراه.

نادى شكري عليه وذهب خلفه ليلحق به قائلًا:

- ما بك يا سعيد؟

- قهرتني الأيام وكأنني ثور مُعلق في ساقية وأنا مغمض العينين.

- أأستطيع مساعدتك؟

- فقط لي رجاء عندك أن تجعل ابنتي أمام عينيك، فهي أمانة لديكم. فهي صغيرة بريئة لا ذنب لها، من فضلك قل لي يا شكري، أن ابنتي ستكون تحت عينك دائمًا.

- ماذا يحدث يا سعيد؟ أأنت مريض؟

- لا شيء، ولكن عدني ألا تجعلها تغيب عن عينك ما استطعت.

- أعدك يا سعيد مع أني لم أفهم ما بك.

مرّ العيد وخرج الصغير من الحضّانة وقد أسموه محمدًا، وكان فعلًا جميل الملامح يحمل كثيرًا من قســمات أمه ولون أبيه، أما ريم فقد طاب لها البقاء بين الفسح والألعاب، وليلى سعيدة بها أشد سعادة،

وعندما حضــر أبوها ليأخذها حزنت ليلى لكنها لم تملك الرفض، فكانت كمن يسرق فرحة ليست لها ويُعطي مسكنًا لوجع لا يغيب عنه.

جلســت ليلى حزينة وعندما عاد زوجها من العمل مســاءً، وقد ألقى الســلام عليها فلم تُجب بل كانت نظراتها هي التي نطقت، فشعر بوجعها ولم يتكلم في

بداية الأمر حتى لا يضـــغط على الجرح لكنه جلس بجانبها صـــامتًا فترة ثم قال:

- كنـت أعتقـد أن الزمن جزء من العلاج، لكن يبـدو أن جرحـك أقوى من الزمن.

قالت وهي تعصر يديها ببعضها البعض:

- يا عارف أنت تعلم أنني بعد أن خســـرت ابني ورحمي لم أجد طعمًا للحياة، وأشـعر كل يوم أنني سـلبتك أغلى ما يملك الرجال وهم حقهم في وجود نسـل لهم من الأبناء.

- أنتِ لم تسـلبيني شـيء، وأنا راضٍ بقضـاء الله وقدره، وإن حرمني الابن فقد وهبني نعم الزوجة، ولا أستطيع العيش بدونك فأنا أحبك.

- أخاف أن يكون حبي أنانيًا.

- مـا حـدث لم يكن بإرادتـك وأنـا معـكِ طوال الطريق، وأمـا هـذه اليـد فلن أتركها أبدًا.

اقتربت ليلى منه ووضعت رأسها على صدره وقالت:

- لي طلب عندك.

- لكِ ما تتمنين حبيبتي.

- أريد أن أتبنى طفلة أُربيها.

- طفلة! حسنًا كما تحبين، لكن الموضوع ليس سهلًا كما أن أهلي سيعترضون أن نُحضر طفلًا من الملجأ ونُعطيها اسـمنا، كما تعرفين نظرة المجتمع القاتلة للطفل المُتبنى، واسم العائلة.

- تقصد خالد أخوك وزوجته آية التي تريد أن ترثنا ونحن أحياء، كما أنني لن أحضر طفلًا من الملجأ بل أريد طفلًا أعرف أهله جيدًا، لذلك سأتبنى "ريم".

- لكن "ريم" لها أهل فكيف يحدث هذا؟
- وافق أنت على الفكرة وسأتكفل بالموضوع، لكن بالله عليك اسمح لي أن أكون أمًا لمرة ثانية. ثم بكت بحرقة وهو جالس بجوارها يضمها لصدره.
شعر عارف بصداع شديد في اليوم التالي فطلبت منه ليلى الذهاب للطبيب فقد تكرر الصداع وأصبح ظلًا له ملازمًا، فلم يُبدِ عارف اهتمامًا بالموضوع وأخبرها أنه من ضغط العمل لا أكثر.

طلبت ليلى من شكري ظهرًا أن يُحضر لها سعيد بمجرد حضوره للعمل ثانية، وفعلًا فعل، وكان سعيد يخاف كلما استدعته ليلى، وهذه المرة كان خائفًا أكثر من اللازم وعندما وقف أمامها زادت ضربات قلبه.
قالت:- كم تريد لتؤمن مستقبل أبنائك؟
قال سعيد:- لم أفهم، اعذريني يا ست هانم، فأنا تعليمي بسيط.
- أريد أن أتبنى ابنتك.
- لكنها ابنتي! وأنا ما زلت على قيد الحياة! كما أننا لا نعرض أحدًا من أولادنا للتبني.
- سأعلمها أحسن تعليم وستعيش أفضل حياة، أما أنت ماذا تملك لها؟ وماذا ستقدم لها غير الفقر والبهدلة! أما هنا فسأعطيها الحياة التي لن توفرها لها يومًا.
- وهل في بُعدها عن أبويها حياة!
- لك الخيار إما أن تقبل أو ترفض.
- لا أظنني أملك خيارًا لشيء في حياتي، ألا تعرفين ذلك يا سيدتي!
ثم جلس على أقرب كرسي بجواره وبلع ريقه بصعوبة وأكمل:

- ابنتي ليســت للبيع. ليســت للبيع.   لم تهتم الســيدة بما يقوله، وكأنها كانت على ثقة مما يواجهه سعيد الذي لم يمر به سوى بضعة أسابيع، وقد عاد ممسكًا يد ابنته للمرة الأخيرة وذهب بها للسيدة.

ثم توقف الأستاذ حسن عن سرد حكايته ثم التقط أنفاسه وقال:

- لا تتخيل أن الأمر كان هينًا على عم ســعيد، فقد كان يتقطع قلبه وهو يُعطي فلذة كبده للغرباء، وكيف له أن يختار وقد اختاره الفقر والذل رفيقًا، حتى أنه عرض بيع كليته على ســماســرة الأعضــاء الذين تمتلئ بهم شوارع وحارات الفقراء، ولكنه رُفض، فالسن والصحة بالنسبة لسنه وعمره ليســت مغرية لهم، وبعد فترة تدهورت صحة فاطمة فقد اتضح أنها تُعاني من ضيق بصمام في القلب، وقد ظهر ذلك مع الحمل لكن الوضع تفاقم بعد الولادة، وكانت مصاريف العلاج والطعام والأولاد فوق طاقته حتى أن أخاها "سيد" _الذي يعيش في الريف_ عندما علم بمرضها أسرع وحضر إليها من بلدته في البعيدة حاملًا معه ما يملك وكان قليلًا لا يفعل شيئًا.

أصبح سعيد قليل الحيلة فارغ اليد يُفكّر كل لحظة ماذا يفعل؟ فأمامه قد سُدّت الطرق، فإما أن يُفرّط في ابنته مرغمًا وإما يفقد من العوز زوجته،وما بين الاختيارين نار تحرق القلب وتُمزّق الروح.

الفصل الرابع
الاختيار

هنا دخل الحجرة والدي ليطمئن على حالتي اليوم، وقد تأثر لوجود حسن بجوار سريري يتحدث إليّ، فسلّم أبي عليه وقال:-

أهلًا بحضرتك، لم أتشرف بمعرفتك يا بيه.

- أنا حسن المشرف الاجتماعي من مدرسة نور، كما أنني أعرفك جيدًا فأنت والد نور.

قال:- الحقيقة لا أعرف ماذا أقول، فقد فعلتم الكثير معي وبتحمل المدرسة مصاريف هذا المشفى قد حملتموني جميلًا لا أعرف كيف أرده لكم.

قال حسن مبتسمًا وهو ينظر لجسدي الممدد على السرير:

- لقد قدمت أنت الكثير، وصدقني نور يستحق أكثر من ذلك، ونحن لم نقدم ذلك إلا لأنك أنجبت ولدًا موهوبًا متميزًا فحق لك أن تفخر به.

نزلت الدموع من عين أبي وقال:- لم يبقَ لي بعد رحيل أمه سوى الولدين الذين تركتهم أمانة وأخشى ألا أستطيع القيام بها.

- صدقني أنت إنسان رائع وبالتأكيد نور قوي مثلك ومثل والدته وسيعود إلينا قريبًا بل قريبًا جدًا.

لم أفهم ماذا يقصد المشرف بأنني قوي، ولا أعتقد أن أبي قد فهم، لكنه اتجه لجسدي مخاطبًا:

- كيف حالك يا صغيري اليوم؟

لم يجب أحد بالطبع فقد استأذن المشرف وتركني مع أبي الذي لم يتحدث هذه المرة طويلًا بل كل ما قاله وهو باكي القلب مكسور الخاطر:

- اعلم يا نور، أنك وأخيك كل شيء بالنسبة لي ولأمك، وأنها كانت عندي أغلى الناس ولن أدع جزءًا آخر منها يُدفن ثانية في التراب قدر استطاعتي، وأدعو الله كل يوم أن تعود إلينا سالمًا غانمًا، فالله ولي الصابرين، لذلك لا بد أن تُقاوم وتخرج مما أنت فيه.

ثم أمسك بيدي وبكى ووضع رأسه بجانب قدمي على السرير.

ثم عادت التشنجات مرة أخرى لينتفض جسدي كأنه يعلن عن رفضه لما فعلت به. وهنا انتفض أبي واقفًا والجميع حولي، وعندها تحررت ثانية من جسدي الرافض لوجود هذه الروح الأنانية داخله، ولم أحتمل وخرجت هربًا من نفسي أتمنى أن أجلد ألف مرة حزنًا على ما فعلته بأبي.

كنت أتعجب من حالي، فمرة أُحبس داخل جسدي ومرة أخرى أملك القدرة على التحول كشبح يسير ولكن بلا منطق ولا وعي، كل شيء حدث وكل مصائبي كما قلت من قبل لنتيجة غلطة واحدة وقرار أهوج في لحظة غضب غير مبرر.

وعندما نزلتُ للشارع وجدتُ المشرف يفتح سيارته ويستعد للرحيل ووجدتني بجواره وهو يقود سيارته الفارهة وتعجبت:

- يبدو أنه ثري، فلماذا يُشغل باله بمشاكلنا؟ ولماذا يتأثر بوجعي ولم يكن يومًا معدمًا مثلي، ما السر خلف هذا الرجل!

رن هاتفه فقطع صوت أفكاري وقد تغيرت ملامحه عندما عرف رقم المتصل، وقد قال باقتضاب:

- لا أستطيع يا أمي، فهذا البيت لن أدخله ثانية إلا بشروطي التي لن أتنازل عنها، والسبب الوحيد الذي يجعلني ما زلتُ أرد على اتصالك هو أنكِ أمي، وإذا لم تفعلوا شيئًا فلن أرد بعد الآن.

ثم صمت بضع ثواني وقال:

- سأحاول. وأغلق الهاتف دون أن ينطق بكلمة أخرى.

وصل إلى شقة في بناء كبير، ومن منظر المكان عرفت أنه يعيش وحده، وعندما دخل فتح هاتفه وأخذ يتصفح صورًا به حتى وصل إلى صورة فتاة تضحك وهي تمسك بقطعة مثلجات وقد تساقط على يديها ثم قال:

- أعلم أنني مقصر في حقك لكنني أحاول، أعدك أن أحاول.

ثم ألقى هاتفه بجواره ثم أغمض عينيه وتمدد على أريكته، ثم مرت لحظات طويلة أخذتُ أتجول في شقته فكانت خالية من مظاهر البهجة بل ساكنة مظلمة وحتى مخيفة ثم قام على رنة الهاتف مستمعًا لدقيقة ثم قال:

- إذن قد وافقتم على الشروط، نعم.

ثم أغلق الهاتف ودخل غيَّر ملابسه ثم خرج مسرعًا وقد لاحظتُ أنه يتألم من قدمه التي يعرج بها وقد أحسستُ بوحدته، ولكن كيف تكون الوحدة مؤلمة مع أنهم يملكون المال لشراء كل شيء!

إنهم لا يقدرون النعمة التي هم فيها، فأظن أن أبي لو امتلك المال لحُلت كل مشاكله.

خرج وكنتُ معه حتى وصل إلى منزل كبير لونه أبيض يحوطه سور عال مزخرف بنقوش تدل على الفخامة، ويبدو من حجمه أنه يتسع لشارعنا بأكمله، وعندما دخلنا وجدنا بيت خال من الحياة يجلس في ردهته رجل عجوز يحمل كتابًا في يده، بينما تجلس آخر الردهة امرأة تعدت الخمسين

لكنها ما زالت تحمل أمارات الجمال الجذاب، وكأنها قد خرجت من لوحة لرسام ماهر أبدع في رسم الوجه المثالي لامرأة لم يفقدها الزمن رونقها، يبدو أنها أمه فهي تملك نفس لون عينيه أو هو يملك عينيها ولأنها عندما رأته قامت واقفة بقوة رغم سنها الكبير ثم اتجهت نحوه بينما كان حسن يقف مكانه مكسور الجناح كأنه يملك حزن السنين، رغم أنه ما زال في سن الشباب.

قال الرجل:

- اجلس يا حسن، فأنا أريد أن أتكلم معك، وسأفعل كل ما تريد وكما تريد أنت أن تفعل الصواب، فأنا أيضًا أريد أن أتخلص من هذا الحمل الذي على كاهلي وأخشى أن أموت وذنبها في رقبتي.

قالت المرأة:

- نحن لم نظلم أحدًا، فهي التي ظلمتنا معها.

- ثانية يا أمي، أراكِ لا تتغيرين، فأنت كما أنت.

قطع الرجل الحديث وقال:

- بل فعلنا يا آية، لقد ظلمنا ابننا قبل أن نظلمها، ظلمناه عندما لم نُحسن تربيته، وظلمناه أكثر حينما كنا نتستر على أخطائه، وظلمنا ريم معه حينما جعلناها سببًا لمشاكلنا في حين أننا كنا سبب المشكلة، ولو لم توجد ريم في حياتنا لوجد ابنك بسوء خلقه ألفًا غيرها يظلمهن، ثم سقطت من عينيه دمعة و أكمل:

- نعم ظلمناه عندما لم نرده عن ظلمها، وعندما صدقناه دون أن نتحرى مما حدث، وعندما سمحنا لك أن تُشارك في جرم هروبها و فلذة كبدنا

وشاهد جريمتنا في الشارع خوفًا منا ليصبح الرصيف أكثر رحمة من قلوبنا القاسية، ثم رفع رأسه وأكمل مخاطبًا زوجته:-
نعم فعلنا حين حاولتِ يا آية بكل الطرق أن تجعليها مجنونة في حين أن ابنك كان هو من يحتاج للعلاج، والآن ماذا جنينًا!
مات ابنك مقتولًا بجرعة مخدر زائدة، فهل كانت ريم هي من حقنته بها!
تنهد برهة ثم أكمل ويكاد قلبه يخرج من صدره حزنًا:
- الحقيقة أمامنا ولكن عيون الظلمة لا ترى النور أبدًا.
ردت المرأة في غيظ:
- أعلم أنني مهما قلت لن تصدقوني، وأنا لم أفعل جرم سوى حماية عائلتي.
ثم أخفضت رأسها وأكملت:- أو هكذا ظننت.
جلس حسن مكانه متعجبًا من عناد أمه، لكنه تقبل الوضع، فقد بدا أنه يئس فلم يعد هناك ما يبكي عليه أصلًا ولم يبقَ سوى الحزن يتنفسه في هذا البيت، ولم يملك نفسه حين قال:
- ريم لم تمت وحدها بل أنا قد مت معها، بل كلنا متنا بشكل ما، وستبقى لعنتها تطاردنا ما بقينا.
تمالك الأب نفسه وقال:
- لن نتكلم الآن فيما حدث، بل لا بد أن نجد حلًا لما نحن فيه، ثم توجه لحسن بالكلام وأكمل:
- بعد وفاة أخيك يا حسن لم يبقَ غيرك يحمل اسمنا فقد سافرت "ندى" ونسيت أن لها أهلًا تسأل عليهم.
قال حسن:

- لا يا أبي هناك ابنًا لك، ولكنك حرمته من اســمكم، وأجبرتم أمه على الهروب وجعلتموه يحمل اســم رجل كان له نعم الأب، حين تخلى عنه أهله وفرطوا في روحه ودمه.

قال الأب بعد أن قتلته الكلمات:

- افعل ما تراه مناســبًا وأنا معك، ولن أدخل القبر أحمل كل تلك الذنوب معي. ثم صمت لتسقط دمعة من عينه كأن الدمع الملتهب لا بد له من صمت عميق ثم أكمل:

وإن كنت قد تخليت عن أمه فلن أتخلى عن ابنها.

- تقصد ابننا يا أبي.

قالت الأم بتكبر وكأنها إحدى الســيدات الإقطاعيات تتحدث للرعية أو للخدم:

- لم يبقَ شــيء أحزن عليه، فقد راح فلذة كبدي ولا يهمني ماذا تفعلون، وأعلم أنكم ترونني المذنب في هذه القصة ولكني لستُ كذلك، ولستُ نادمة وإن ندمت على شيء فهو على تربية تلك البنت التي دمرت أسرتي.

- بل دمرناها يا أمي وما زال الذنب قائمًا، ولا أدري هل ستسامحنا أم لا؟

فلم تجد لها صدرًا أو قلبًا يضمها، لقد دمرناها يا أمي وفعلنا بها كما فعلت الحياة، فقد كنا القاضــي والجلاد، ولو أملك لأرجعت ســاعة العمر للوراء، وكنتُ أنا سفينتها حينما حطمت الدنيا طفولتها بين سندان الواقع ومطرقة الظروف وسوء ظن الناس.

قال الأب:- يا ليتنا كلنا نملك تلك الساعة.

قال حسن:

- سـامحني يا أبي فلن أقف مكتوفًا هذه المرة وسـأرجع الحق لأصحابه، ولأجعلها ترتاح في قبرها، أما أنتِ يا أمي فليس أمامك سوى الدعاء لله بل الكثير منه.

في اليوم التالي وجدتني قد عدتُ للمشفى وهذه المرة قد تعبت من التنقل وكأن تنقلي يضعف قوتي المثقلة بكل هذا، وهنا لم أجد سوى الله _عز وجل_ لأخاطبه فقلتُ رافعًا يدي:

- يا رب لم يعد يسمعني أحد، ولا يشعر بي غيرك فإلى من ألجأ وقد تعبت فإما أن تأخذني إليك أو تردني إلى حياتي السابقة التي بجهل مني كنت أعتبرها جحيمًا والآن أهلًا وسهلًا بذلك الجحيم.

ومر وقت طويل نمتُ فيه ولأول مرة أنام منذ الحادث أو أشعر بالنوم،

وتعلمتُ جيدًا أننا أحيانًا لا نشعر بالورود التي تزهر في يدينا رغم أننا نشم عبيرها كل يوم،

قمتُ من النوم سعيدًا شاكرًا الله على ما حدث وكان دعائي لله قد أزال عني كثيرًا من غبار نفسي، وفجأة دخل أبي فقمتُ مسرعًا بأخذه في أحضاني ورغم أنه لم يشعر بي لكنني أنا الذي كنتُ في حاجة إلى هذا الحضن الذي ألقى فيه كل هموم الكون، وأخذتُ أملأ من رائحة أبي كل الشعور بالحب والأمن وحتى رائحة أمي أجدها عنده، ولكن أبي لم يكن يتكلم معي مثل كل مرة بل كان صامتًا كل الوقت وهو ممسك بيدي الممتدة بجانب جسدي على الفراش وقبل أن ينصرف ضغط على تلك اليد قائلًا:

- لم أكن أعلم أن الحفاظ على أمانة أمك سيكون صعبًا هكذا، لكنني سأحاول كما أنني أعلم أنك قوي وستنتصر على نفسك وتعود أفضل مما كنت، فأنا لم أُربِّ ضعفاء مهترئين، وقد حاولت كثيرًا ويشهد الله أن ترى

الدنيا ليس من منظور الضحية ولكني أُعلمك أننا نستطيع أن نصنع حياة ليست مثالية لكنها سعيدة.

بكى أبي، وخرج وقد حاولت اللحاق به لكنني لم أستطع وبعد ذلك عادت التشنجات، وكما هو الحال فجمع من الممرضات ملتف حول جسدي وأصوات مختلفة صارخة على حالتي، كأن الأجهزة تصرخ بدلًا مني، ثم هدأت ولم أدرِ مقدار ما مر من وقت حتى دخل حسن مشرفي في المدرسة، وقد فرحتُ به فعلًا وكأنه أبي الثاني فقد لمستُ حبه لي على عكس ما كنت أتوقع، وقد أحضر وردًا جميلة وكلها باللون الأبيض وقال:

- أعتقد أنك تحب اللون الأبيض كثيرًا وهذا إحساسي، وعندما وجدتُ اهتمامه بل وإحساسه بما أحب _فقد كنت فعلًا أحب اللون الأبيض في الورود مثل أمي_ عندها تحول فرحي إلى حيرة وخوف من هذا الغريب الذي كل يوم يبعث في نفسي آلاف الأسئلة وكلها لا أملك لها إجابات، لكن وضعي لم يكن يسمح كثيرًا بالسؤال.

بدأ يُكمل حكاية تلك البنت التي لا أعرف إلى الآن من هي؟ وما الشبه في قصتها؟ ولماذا يحكيها بكل تلك التفاصيل وكأنها جزءًا من روحه؟

ورغم كل ذلك كنتُ متشوقًا لمعرفة بقية القصة وكان كأنه شعر بشوقي للبقية فقال دون مقدمات:-

أعطى سعيد ابنته للسيدة للمرة الأخيرة وكان الثمن المؤلم لا بأس به، ورغم حقيبة المال في يده لم يشعر سوى بالخزي من نفسه التي تمزقت بينه وبين ابنته، فخرج وجزء كبير منه قد فُقد، ولم يرَ نفسه سوى أب تحوَّل لبائع، ومَن البضاعة؟

ابنته التي ارتكب في حقها ذنبًا كبيرًا،

لكنه عاد يصبر نفسه قائلًا:- ستعيش ريم حياة سعيدة وسيوفرون لها ما عجزت عن توفيره وما لم أحلم به أصلًا، ومشى خارجًا شاردًا حتى أنه لم يرد على كلام شكري البواب، وكأنه اعتاد ألا يراه بل بدا كأنه لا يسمعه أصلًا، وعندما وصل للشارع مشى كالقائم من القبر للحساب متخبطًا غير متزن، ولما خذلته قدماه جلس على رصيف الشارع والناس تمر به بسرعة مثلها مثل ذكرياته في رأسه وحياته المضطربة، فقال لنفسه وهو ينظر للحقيبة في يده:

- هل بعت ابنتك يا سعيد؟

هل أعطيت روحك لغيرك يفعل بها ما يشاء؟

- وعاد نفس السؤال يقتله:- هل بعت ابنتك يا سعيد؟

- لا، لم أبعها، بل أعطيتها فرصة لتحيا حياة أفضل.

- هل بعت ابنتك يا سعيد؟

رد بصوت عالٍ هذه المرة وقام صارخًا ليتوقف من حوله متعجبًا عما به وهو يقول:

- لا بل أعطيتُها فرصة أفضل كما أن أمها أصبحت تملك فرصة أن تحيا ليعيش البقية؟

لا بد أن يعيش البقية. يعيش.. ونظر حوله حيث الوجوه الفارغة من الملامح والأيدي المهتمة فقط بما ستأخذه من غيرها، ثم ارتمى على الأرض باكيًا كأن به نوبة صرع، واستمرّ في حالته تلك إلى أن انتبه فوجد نفس الطفلة التي كانت مع الولد بائع الليمون تجلس أمامه بجانب صندوق خشبي قديم قد غطته بورق الجرائد ووضعت عليه بعض علب المحارم الورقية، وكانت صغيرة جميلة لولا مسحة أثر الشمس على لونها ترتدي خمارًا وكأنه خيمة

تُغطّي كامل جسـدها النحيل، فاقتربت منه وقالت:- خذ منديلًا وامسح دموعك.

انتبه سعيد لنفسه ونظر إليها طويلًا فما أشبهها بابنته في براءتها، ومن منظر نظراته ابتعدت خائفة، لكنه اقترب بهدوء وجلس بجوارها وسألها:

- بكم كل هذه المناديل؟

قالت بعد صراع مع الصمت:

- عُدّ معي يا عمو، حتى نعرف كم علبة.

ابتسم سعيد بوجع وقال:-

خذي هذه العملة الورقية ولتبقي العُلب معك ولكن بشرط!

- ما هو؟ سألت وهي تموت خجلًا.

قال:- أن تقولي لي اسمك.

- أنا حياة.

- حياة بلا حياة، فعلًا ما أقسى الحياة! وما أجملك وما أجمل صوتك!

ثم نظر ليديها الصغيرة وهي تُقلّب الورقة من فئة المائة جنية، وحينها تذكر يد ابنته وهي ممسكة به بقوة قبل أن يتركها للقدر.

وعندما تذكرها بكي ونظر ثانية للناس، لكنهم كانوا كما هم، يمرون بسرعة كأنهم كائنات آلية مبرمجة لوظيفة معينة، وفجأة توقف الناس وتسمرت الأجساد وهدأت الأصوات إلا صوت عقله يُصارع القلب المتعب.

وكالعادة ينتصر القلب غالبًا ويعلو صوته منفردًا ليقوم سعيد بعدها منتفضًا كي يعود لابنته يحتضنها وهو ينظر باحتقار لحقيبة المال في يده، لكن سيارة مسرعة هي التي احتضنته ولملت شتات نفسه حين صدمته، وخرجت صرخة من قلبه لتخرج معها روحه سريعًا كما خرج أيضًا المال

متناثرًا من الحقيبة، ليجتمع من يمر على المال بين جامع وفرح، ولم تمنع الدماء المتناثرة على بعض الأوراق من أن يتسارع إليها الجميع، فعندما تشتد الحاجة يقصُر النظر، ونتجنب المنطق وتقسو النفوس أن ترى آلام غيرها من البشر، و بينما دماء سعيد تغطي الطريق لم يسمع المتلهفون للمال كلمة "ابنتي" ولم يروا دمعه الذي تحجر في عينيه، وكان وجهه متجهاً نحو فتاة المحارم وكانت هي الوحيدة التي صرخت من أجله، وقد خافت بل خافت بشدة وتقوقعت على نفسها فمن الصعب أن تفقد العين الوحيدة التي رأتك وتعاطفت مع طفولتك المسلوبة، فكلاهما نادرًا ما يراهم أحد، وكأن من الطبيعي أن تحتضن الطرقات أجسادهم المهترئة وقلوبهم الذابلة.

مات سعيد تحت عجلات السيارة، لكنه قد مات قبلها تحت عجلات الحياة، وما أكبر الشبه بينهما فكلاهما لا يرحم فكما تقتل قسوة الحياة القلوب تقتل قسوة العجلات الأجساد وفي كلتا الحالتين مات سعيد، ومات معه كل أمل في أن تجد فاطمة ابنتها، فلم تكن تعرف لها طريق وكانت في الجنازة تتلوى وتقول:

- سعيد مات يا ناس، سعيد مات وأخذ ابنتي معه

من يخبرني بمكان ابنتي؟

فقط دلوني على طريقها أو اتركوني اذهب خلف من ذهب. ثم تفقد الوعي لتصحو والكابوس ما زال واقعًا مرًا لتكمل ما تقوله:-

- من يبحث معي عن ابنتي؟

تشجع الجميع وعبروا عن استعدادهم للبحث عنها لكنهم سرعان ما اختفوا بعد الجنازة لدرجة أنها أخذت تُنادي وهي أمام المقابر محتضنة صغارها:

- من منكم يبحث معي عن ابنتي؟ سعيد راح يا ناس وابنتي ضاعت معه.

ولم يرد عليها أحد، فهم متأثرون لها فعلًا لكنهم كانوا كأنهم لا يســمعون أو ســمعوا ولا يهتمون، وكيف لهم أن يهتموا وهم لا يملكون وقتًا للبحث عن أحد، وإذا وجدوا فلا مال يســعفهم لذلك، وكلهم مكبلون بطوق الحاجة وســندان العوز، وعندها لم يبقَ ما يقدمونه ســوى الكلام، وكان الكلام هو كل ما وصــل لفاطمة وقد باءت كل المحاولات للبحث عن عنوان شــكري والسيدة ليلى بالفشل، فلم تكن تعرف سوى أسماء لا تسمن ولا تُغني من جوع، بينما ظن شــكري البواب كما ظنت ليلى أن ســعيد قد نســي ابنته أو تناساها ولم يملك الجرأة للسؤال عنها حتى.

الفصل الخامس
"التمرد"

كان سـيد أخو فاطمة قد أحضـر زوجته وأولاده من البلدة، وقد باع داره ليعالج ببعض ثمنها أخته، وليقف بجوارها وقد اشـترى بالباقي عربة يصـنع عليها الفول في الشارع، فقد علم أن أخته لا تقوى على الحياة وحدها في هذه المدينة الكبيرة، وكانت فاطمة تهرب من أحزانها بالصـمت كما هرب سـيد أخوها من الفقر في بلدته ومن ضـغط زوجته "عبير" التي كانت تلح عليه أن يعيشا في القاهرة ويتركا حياة الريف بقسوتها وفقرها كما تقول.

كانت عبير سـمراء البشـرة طويلة ممشـوقة القوام، وإن كانت ممتلئة شـيئًا بسـيطًا وكانت سـمرتها مميزة تضـيف لجمالها جمالًا فهي أشـبه بفتاة الإعلانات أو عارضـات الأزياء الإفريقيات غير النحيفات، وكانت تبرز جمالها وتقاسـيم جسـدها كما تحرص على أن يظهر ذلك الجمال في كل رداء تلبسـه أو حركة تخطوها، ولا تخرج سوى والكحل في عينيها.

ومع الكحل في عينيها كان هناك ألوان تضعها فوق الجفن تصل إلى الحاجب لتبرز معه أهداب طويلة يصل إليها بعض الشعر المنسدل على جبهتها وتغطي رأسـها بقطعة قماش لا نسـتطيع أن نعتبرها حجابًا لأنها تظهر أكثر مما تُخفي، ومن خلف ظهرها ينهمر شعرًا أسود منسدلًا يتهادى مع النسيم مثلها مثل أغلب النسـاء الريفيات التي لم يأخذن حظًا من التعليم، فأصـبح كل شـاغلها هو كيف أكون متميزة، وكانت مدركة حقًا لمدى جمالها ورشـاقتها، تشـبع نظرات الإعجاب ممن حولها رغبتها في الظهور والتميز، ورغم أنها

تفتقر لأي ثقافة تعليمية لكنها كانت ترى نفسها ضحية للظروف وللفقر وأنها تستحق أكثر مما هي فيه، حتى تظنها شخصية خرجت من روايات نجيب محفوظ، وكانت تري أن سيد لم يعد يليق بتطلعها، بل تري ولديها غلطة ستقف عثرة في سبيل أحلامها العالية والتي تفتقر لأي أساس في الواقع.

عبرت عبير مع زوجها مرحلة الريف لتنطلق لمرحلة المدن ولم يكن سيد يملك سوى عربة الفول التي حرص أن يشبع بها جوع أولاده لكنها لم تشبع تطلعات

ومتطلبات فاطمة وأحلامها، لكن مع الوقت صعب الحمل على الجميع، فلم تحتمل فاطمة بل ربطت جرح قلبها حين ربطت وسطها بحزام الجلد والصبر مع المرض، ولملمت ما بقي لها من مساعدة الناس واشترت بعض الخضار التي لا تعرف غيره وافترشت به الطريق، ورغم رفض "سيد" لكنها كانت تعلم طباع زوجته وتأنيبها المستمر له كما أن حملها ثقيل ومرضها يحتاج متابعة.

جاءت إليها إحدى الجارات بعد عدة أيام من جلوسها في الشارع تقول لها:-

مسكينة يا فاطمة، كيف لامرأة في جمالك ينتهي بها الحال هكذا؟

- - إنه النصيب، وأنا قد رضيت بنصيبي.

- تستطيعي أن تغيريه؟

أجابت بحسرة فلا أحد يفهم وجعها ولا يلمس ما في قلبها:-

كيف نرد المكتوب؟

- تتزوجين ثانية فأنتِ تمتلكين أكثر ما يحبه الرجال وهو الجمال، بل كثير من الجمال.

- وأنتِ تملكين الكثير من الغباء، فمثلي لا يُقال لها هذا الكلام، فأنا قد تزوجت أولادي وحملي الثقيل، فاغربي عن وجهي ولا أريد أحدًا بجانبي، فكأنكم عميتم أن تروا وجعي، اغربي عن وجهي وقولي لمن أرسلك إنني قد تزوجت الأسود وأن سعيد زوجي لم يمت فقد ترك لي سبعة منه.

- أنتِ حرة ولكن لا ترجعي وتندمي. هكذا ردت المرأة بغضب.

- لم تعلق فاطمة، فالخطب عليها شديد، وقسوة الواقع خانقة، وحتى وجوه الناس لم تعد تراها كما هي.

حضر سيد بعد العمل على العربة، ثم اقترب من أخته وجلس بجوارها وقال:- هل تتذكرين يا فاطمة عندما كنا صغارًا نلهو بمحصول الطماطم، وكيف كان أبونا يجري خلفنا لأننا كنا نقذف بعض بها؟

- قالت:

- نعم، كانت أيامًا جميلة حتى أنني أدفع عمري ليعود يوما واحدًا منها.

- أعدك أن تتحسن الأوضاع فالله لا ينسى عباده.

رفعت فاطمة كفيها للسماء وتمتمت ببعض الكلمات التي لم يسمعها سيد، لكنها كانت بلا شك كلها طلب ورجاء.

أما ريم فكانت في البداية تسأل عن أبيها وأمها، ولكن قصيرة هي ذاكرة الأطفال

فسرعان ما نسيت، وأما ليلى فقد أحبت فكرة عدم سؤال سعيد عن ابنته وسعدت أن ريم أصبحت ملكًا لها وحدها.

في هذه الأثناء كانت عبير تتمرد على حياتها مع سيد، وبدأت تنظر خارج إطار حدود قدراتها، فتنظر بحسرة لكل من حولها، وتتأمل النساء وهن يرتدين الذهب ويركبن بجوار أزواجهم في السيارات الفارهة، ولم ترَ نعم الله عليها

ولا حب زوجها لها، ولا جمال ولديها، فلجأت إلى ســلاح المقارنة والتحسـر وعدم الاهتمام بأســرتها حتى ضــاق بها زوجها الذي حاول بكل الطرق أن يرضيها لكن طمعها كان بلا حدود، وقدرة سيد مثقلة بكل الحدود والظروف، لكنه كان يحبها ولم يشأ أن يتركها فريسة لنفسها، فأسوأ ما يُبتلى به الإنسان نفســه، لذلك كلما ضــاق به الحال خرج للشــارع الواســع الذي تتفرع منه حارتهم الضـيقة وجلس بجوار حائط المسجد الكبير، ورغم أنه كان مخنوقًا لكنه كان يشــعر ببعض الهدوء يتســرب لنفســه رويدًا رويدًا، ثم يرفع يديه للسماء مخاطبًا ربه أن يعينه على حمل زوجته وأخته.

حضـرت عمتي للمشـفى ووجدت حســن قد نام من التعب، ولم تفهم عمتي سبب تعلقه بي وبحالتي ولكنها أشفقت على حاله، فأخذت غطاء من أغطية السرير وغطته في حنو بالغ ثم اقتربت من جسدي وأمسكت بيدي وقبلتها في هدوء ثم قالت:

- أعلم بقلبي أنك هنا وأنك تسمعني وبالرغم من أنك لست ولدي ولم أحملك في رحمي لكنك ابني مثلك مثل أيمن بالضبط ولن أدعك ترحل بهذه السهولة بل ســتصـحو وســأفعل ما وعدتك به بأن أضــربك على هذه الرأس المُتعبة والتي لا أعرف كيف تفهم الحياة، وأنت لم تُعطِ الحياة فرصة لتشرح لك.

استيقظ حسن متعجبًا كيف لم يشعر بعمتي وتعجب أكثر من الغطاء على جسمه فاعتدل متأسفًا أنه لم يشعر بها لكن عمتي بادرت بقولها:

- أنت مثل ابني، وأنا لا أعرف كيف أرد لك جميلك للاهتمام بابن أخي.

قال حسن:- بل أنا من يجب أن يشكركم أنكم سمحتم لي أن أكون بجواركم.

قامت عمتي من جواري وجلست بجوار حسن وقالت:

قد نســتريح أكثر حين نضــع همنا على أكتاف الغرباء، فقد نجد الراحة في الحديث معهم، فهل تعلم لماذا؟ لأنهم لن يحكموا علينا، لذلك لا نُجبر على التجمل أمامهم فنحن لســنا ملائكة وإن حاولنا أن نبدو كذلك، اذهب يا ولدي للبيت ولتســتريح، فأنت يبدو عليك التعب، وكأنك تحمل الكون على كتفيك، فلا تنسَ أن الكون لن يسـقط بسـقوطك بل سـيبحث عن فريسـة أخرى ليقتات على أكتافها.

تنهد حسن وكاد يبكي من وقع الكلمات لكن عمتي لم ترد إحراجه فأكملت:

إن احتجت أحدًا للحديث معه، فأنا هنا حتى يعود نورنا إلينا وحتى أنت أصـبحت من العائلة وتسـتطيع الحضـور للبيت في أي وقت، وسـأسـعد بالحديث معك.

حاولت في اليوم التالي أن أذهب للمدرسـة لأرى أصـحابي فأنا قد افتقدتهم كثيرًا لكنني لم أسـتطع حتى أصـبح الوقت طويلًا كئيبًا مملًا لكن اليوم كان مختلفًا في آخره حين حضـر أبي ولم يكن حزينًا كالعادة، بل كان متفائلًا وقد حضر معه الطبيب نوح الذي أخذ يتحدث معي ويختبر رد فعلي ويدلّك كامل جسدي، وكان صامتًا عكس أبي الذي قال في سعادة وقد لمعت عيناه:

- هل تعلم يا نور، أنني قد رأيت أمك بالأمس! وكانت تحمل علبة مضـيئة بين يديها ثم اقتربت مني وكنت وقتها كالنائم ثم قبلت جبيني ووضـعت العلبة بجانبي، وعندما قمتُ من نومي فتحتها فوجدتها تحمل صـورة لك، وأنت تحمل شـهادة تخرج من جامعة ما، وحينها علمت أن كلاكما سـيعود إلينا، فقد اشتقتُ لكما كثيرًا.

ثم احتضـن جسـدي الذي كان قد بدأ يُصيبه الهزال من نومة المرض، لكنه لم يترك جسـدي ولأول مرة أشـعر بأنفاسـه على وجهي وحينما حاولت أن

أفتح عيني بالقوة لأسعده وجدت أمي تقترب منا وتضع يدها على عيني وتدعو الله لي بالشفاء.

كما اعتادت أن تفعل وأنا مريض و... فجأة عادت التشنجات لكنها كانت أقوى من كل مرة حتى كادت أن تقضي علي وعندما وضعت الممرضة محلولا في وريدي شعرت به، نعم شعرت بالسائل البارد يتسلل في عروقي شيئًا فشيئًا فحاولت النهوض وكان كل ما استطعت فعله هو تحريك عيني وعندها صرخ أبي كالمجنون:

- ابني ابني.. إنه يفيق. وفعلًا بدأت أشعر بما حولي لكنني كنتُ وما زلت عاجزًا عن الحركة وكل ما فعلته هو تحريك عيني وبعض أصابعي وانتهت حياتي كشبح وبدأ صراعي لأصير إنسانا طبيعيًا،

بدأ الجميع يتوافدون لرؤيتي من عائلتي ومعارفي، لكنني لم أرَ فرحة بنجاتي قدر فرحة "حسن" فقد كان كمن وجد روحه بعد غياب، وقد أحضر لي أصدقاء المدرسة لكي يتكلموا معي ويشجعوني على الشفاء، وما أشد فرحتي بهم وفرحتهم بي رغم صعوبة الكلام وعدم قدرتي على الحركة؟ لكنني كنتُ أشعر بامتنان غريب لكل ما أنا فيه،

في اليوم التالي حضر "حسن" فوجد عمتي تجلس بجواري وعندما رأته قالت:

- أهلًا أيها الغريب.

قال: ومن أدراك أنني غريب؟

قالت:- عيناك تقول ذلك، لا تقلق فستجد شطك الآمن كما فعل نور. ثم قامت تهم بالانصراف وهي تقول:

- الشر قد يحمل الخير داخله والابتلاء قد يكون منحة لا محنة.

قال في تعجب:

- تتكلمين كلامًا كبيرًا أشـــبه بكلام نور، وأنا الآن قد عرفت من أين يأتي نور بكلامه الكبير؟

قالت في ثقة:

- عظيمة هي الحياة حين تكون المعلم الأول، وقاسية حين تكون تحت قدميها طالبًا!

خرجت عمتي وجلس حسن قائلًا:

- نور هل كنت تسمعني كل تلك المدة؟

أومأت برأسي بما معناه نعم.

قال:- لعلك تعلمت شيئًا يا نور.

قلتُ بصعوبة:- ماذا فعلت ريم؟

ضحك المعلم وقال:

- قلتُ لهم أنك ستعود بسرعة فمثلك لا يعرف الصمت طويلًا.

ابتسمتُ ولم أتكلم.

- مر عام ســـريع كبر فيه الجميع، وحتى فاطمة كانت كمن عاش عمرًا على عمره وبدأت ملامح وجهها تكتســي ســمرة من الشــمس ونحافة شــديدة في الجســـم حتى تظن أن كل ما في فاطمة القديمة قد مات، وأصــبحت هناك فاطمة أخرى قد فرمتها دفة الأيام حتى لم تعد تتعرف على سابقتها.

كانت فاطمة تُخصص يوم الجمعة للبحث عن ابنتها وكل مرة تبحث في مكان جديد ولا تريد التوقف أبدًا، فتخشى على ابنتها النسيان أو انقطاع الأمل.

وكان محمد أكثر ما يشـــغل فاطمة فهو نحيف وكثير الحركة، وعندما كانت تؤدبه مرة وجدت سـيد قد حضـر متغير الوجه شـارد العينين، وتعجبت أنه لم يذهب لعربته ويقول:-

تركت "عبير" زوجتي المنزل، وغابت بين يوم وليلة ولم يعثر عليها أحد، وقد بحثنا عنها كثيرًا لكننا لم نجدها، ولم أخبرك منذ الأمس لأنني أخاف عليك من الوجع، ولقد تشاجرنا كالعادة على مصروف البيت وكنت أتوقع أن تخرج بعض الوقت لتهدأ مثل كل مرة لكنها لم تعد.

هدأت فاطمة من خوف أخيها وحاولت مواساته لكنه بكى وقال:

- كنت أتوقع أن تفعل ذلك يومًا ما، فلم يعجبها شيء في حياتنا مؤخرًا ودائمًا تتطلع إلى ما لا نستطيع الوصول إليه.

حاولت فاطمة أن تُطمئن أخاها في حين أن قلبها محترق، وأخذت وشاحها وخرجت وهي تقول سأبحث عنها بين سيدات الحي عسى أنها غاضبة منك، وأنت لا بد أن تُسافر البلد هذا اليوم لتبحث عنها هناك علها عادت لأهلها تشتكي لهم.

مرت ساعات وتبعتها أيام وللأسف لم تعد عبير بل كثرت الأحاديث عن هروبها من الفقر، وأنها بالتأكيد ارتبطت بشخص غني أنساها كل شيء، وقد نسج أهل الحارة القصص عنها، وكلٌ يُفسّر غيابها كما يُحب، حتى أن بعضهم قد نسج قصصًا عن محادثات بينهم وبينها لم تحدث أصلًا، والكل يسرد الرواية التي يحب، بينما سيد يعتصره الألم والخوف منها وعليها ومما هو آتٍ، وعندما ذهب لتقديم بلاغ عن اختفائها تم التحقيق معه على أنه المتهم الأول خوفًا من أن يكون قد قتلها وتخلص من الجثة، وما بين قصص عن قتلها وأخرى عن هروبها مرت سنون أخرى حزينة انتهت بالإفراج عنه لعدم وجود أدلة على جريمة قتل، لكن سيد لم يعد هو الآخر كما كان فقد خرج من التجربة ليس كما دخلها،

فأصبح شخصًا آخر كالميت الحي أو الحي الميت.

وقد ضمت فاطمة مسؤولية ولديه لمسؤولية أبنائها، ولم تتذمر كثيرًا بل لم تكن تتكلم إلا نادرًا، حتى لتشعر في وجودها هي وأخوها أن الكون ليس فيه سواهم فلا حوار ولا ضحك وحياة، ولكن محاولة فقط للصمود، ليس من أجلهم بل من أجل الأولاد الذين ضموهم معًا فأصبحوا ثمانية أشخاص في رقبة الاثنين.

قلت:- وماذا عن ريم يا عمو حسن؟

قال حسن:- ريم مرّت عليها الأيام جميلة سعيدة، وسرعان ما تأقلمت فيه على حياتها الجديدة التي أنستها كل ما سبق سوى بعض أحلام بصورة أمها بين الحين والآخر ولا نستطيع أن نلومها لأن تلك هي طبيعة الأطفال ولعلها أجمل ما في فيهم.

في النهاية لم ترجع عبير ولم يُعرف مكان ريم، ورغم ذلك لم تفقد فاطمة الأمل، لكن الحياة لم تكتفِ بكل ذلك الوجع، فقد خرجت ريم مع أسرتها الجديدة إلى شرم الشيخ لقضاء الإجازة والاستمتاع بجمال الله في الكون، ولكن السيارة انقلبت بهم فقد عارف الوعي وهو سائق، ونقلوا جميعًا للمشفى الذي صعدت فيه روحهما للسماء بينما وُضعت ريم تحت الملاحظة وكانت بفضل الله حالتها مستقرة،

وخرجت ريم من المشفى بعد يومين لتجد نفسها مع عائلة لا تعرفها وأسرة لم ترهم من قبل، فقد ضمت عائلة الأستاذ عارف البنت لها بحكم القانون وأصبح "خالدًا" أخا "عارف" المسؤول عنها وعن جزء كبير من الثروة التي حرصت "ليلى" من اليوم الأول لتبنيها أن تكتبها لها لتستلمها إذا أصابهم مكروه، كما أن "ليلى" تعرف أن أهل زوجها لم يوافقوا أبدًا على تبنيهم لهذه

البنت، ولم يعاملوها يومًا أنها فعلًا ابنتهم، بل لم يهتموا يومًا بالسؤال عنها، لكن الحياة لا تهبنا الخير دائمًا،

فقد أصبح السيد "خالد" وزوجته "آية" هم عائلتها الوحيدة الآن، وكما لم تتقبلها زوجة عمها من قبل لم تتقبلها الآن.

وبينما كانت "ريم" تدور بأعينها بين المعزين تبحث عن أبويها أو أحد تعرفه لكنها لم تجد سوى عيون تنظر إليها في إشفاق أو حتى لا تفعل، وريم بين العيون صامتة خائفة تنتظر أن تجد يدًا تربت عليها أو تشعر بها، لكنها لم تجد، وأحست بخوف غريب، حتى أنها توقفت عن البحث، وخافت أن تتعلق عيناها بالأمل أكثر، فنظرت للأرض حزينة خائفة، وفقدت الأمل في عودة من تحبهم فتكورت على نفسها تتفادى الجميع حتى أنها راحت وهي مكانها في نوم عميق أو لنقل هروب حزين، وقد أحسّت أن النوم أهون من واقع لا تحبه أو حياة ليس لها فيها مكان. فقد فقدت عائلتها للمرة الثانية وما أصعب الفراق على الأطفال!

عندما استيقظت خرجت للحديقة تنظر من خلف شجرة على بنت في سن قريبة من سنها، لكن البنت لم تلتفت إليها أصلًا بينما اقترب منها ولد يصغر البنت بقليل وقال:- تحبي تركبي الأرجوحة؟

- لم تُجب الفتاة، فأسرع الصغير وأمسك بيدها وقال:

- هيا سألعب معك، أنا حوده.

مشت الصغيرة معه ولم تتكلم بل كانت تمشي على استحياء، فاقترب هذا الصغير من الفتاة الأخرى وقال لريم:- هذه أختي ندى.

لم تهتم ندى بل نظرت للصغيرة برهة ثم أشاحت بنظرها غير مكترثة بالصغيرة الخائفة، فأكمل قائلًا وهو ينظر لريم:

- هي هكذا لا تُحب اللعب معي أنا أيضًا.
كان خالد ينظر من النافذة يتأمل المنظر مشــفقًا على الصــغيرة حتى بادرته زوجته قائلة:
- ماذا نفعل بهذه الفتاة؟
- نفعل بها! ستبقى معي فهي ابنة أخي؟
- نعم، ماذا تقول؟ إنها ليست ابنتنا، ولن تكون، ولو حملت اسم عائلتنا.
- إنها ما بقي من رائحة أخي.
- أية رائحة؟ أنسيت أنها من الشارع، فلا العائلة عائلتها ولا الرائحة تعود لنا.
ماذا تقصــدين يا آية؟ فأنا قد دفنت أخي الوحيد منذ ســاعات، ولم يبقَ لها سوانا، وأنا بالقانون الواصي عليها وعلى أموالها.
- تقصد أموالنا.
- وهل تعتقدين أن ما نملك يُعد شــيئًا بالنســبة لثروة أخي ومع ذلك لم يأخذ معه شيئًا للمقابر.
ثم نظر للفتاة وقال في نفسه:
- مسكينة فقدت في لحظة كل شيء، اللهم قنا شر المصائب والفجأة.
أحســـســـتُ بالحزن ورغم رغبتي في معرفة بقية القصـــة لكنني تمنيت أن يختصـــر حســـن الكلمات ويطوي الأيام ويقول لي ماذا حدث مع تلك الفتاة المسكينة!
واســتمر يحكي تفاصــيل شــعرتُ معها بالتعب الشــديد حتى أنه أشــفق على حالتي وابتسم كعادته وأمسك بشعري وقال:
- الآن يا بطل لتستريح.
قلتُ له مبتسمًا:

- شكرًا لأنك إلى جانبي.

لم أفهم نظرته لكنها نظرة لم أعهدها من قبل وبعد صمت غريب شرد فيه ببصره نطق وقال:

- لم أفعل لك شيئًا وليتني فعلت.

لم أفهم أيضًا كلامه كما نظرته، ثم هرب بعينيه مني وخرج ولم يلتفت خلفه.

جلستُ وحدي أتحسس بيدي حواف السرير وجمال ملمس الأشياء حتى رائحة التراب أصبحت تسعدني، وأصوات السيارات في الشارع موسيقى عذبة بالنسبة لي.

بعد رحيله فكرت في كلامه وقلتُ لنفسي:

- يومًا ما سأصير كاتبًا كبيرًا وسأكتب قصته حتى يعلم الناس كيف يُقدّم البعض روحهم غالية من أجل غيرهم، كما سأكون غنيًا وستُحل مشاكلنا كلها، وعندها سأُصلح هذا الكون، ولن يبيت طفل مشرد في الشارع، وتخيّلت نفسي قد أصبحتُ ثريًا فعلًا، وفكرتُ في كل الضعفاء، كما فكرتُ في فاطمة كيف ظلمتها الحياة وقلتُ:

- يا رب لماذا خلقت الفقر والفقراء؟

ولماذا مات زوجها سعيد وفقدت في نفس الوقت ابنتها "ريم"؟ فهل الحياة ليست عادلة؟

أم لم نفهمها بعد!

وهنا دخلت عمتي بهدوء كعادتها وقالت:

- كيف حالك اليوم؟ ولم تنتظر ردًا بل أخرجت رغيف خبز من حقيبتها وقالت وهي تهمس لي:

- رغيف حواوشي قد أعددته لك خصيصًا وأعلم كم تحبه.

- هل يسمحوا لي بهذا النوع من الطعام بعد؟

- يسمحوا! هل يعرفون أكثر مني! كُل كي تنفض هذا الضعف عنك، ولتسرع في الشفاء، فأبوك مسكين يشقى من أجلكم.

- كلميني عن أمي.

تعجبت عمتي من سؤالي وقالت:

- أمك كانت جميلة، وأنت تُشبهها كثيرًا لذلك أنت تعرفها جيدًا، فلماذا تسأل عنها الآن؟ هل قصّرت في حقك؟

إني أخاف يا عمتي؟

- ممَ يا بني؟

- أخاف أن أنسى صوتها أو تزايلني ملامحها، ولا يبقى عنها شيء في ذهني، فأنا أريدها أن تظل حية داخلي.

أريد أن أعرف عنها كل شيء، فأنا أفتقدها بشدة، وكل ما أتذكره هو بعض المواقف ولكن مشهد الحادث هو ما يسيطر عليهم جميعًا.

اقتربت عمتي مني أكثر وقبلتني وقالت:

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

قلت:- فقط تحدثي عنها وكيف قابلت أبي؟ وأين هي عائلتها؟

- عائلتها!

- نعم يا عمتى، أريد أن أعرف كل شيء عنها فأنا عندما أكبر سأصبح كاتبًا كبيرًا، وأريد أن أكتب عنها.

- في البداية لم أحبها كثيرًا، فأنا لا أحب المفاجآت وقد عاد جدك في ليلة من العمل وهي في صحبته وقال:- هذه من اليوم ابنتي.-

- معقول أول مرة أعرف هذا.

- أنت تعلم يا نور، أنني لست كاذبة، لكن أمك رغم رفضي لها في البداية إلا أنها دخلت قلبي بطباعها، فقد كانت جميلة هادئة وصامتة كثيرًا، وأنا أحب الصمت والهدوء.

- وعائلتها؟ أين هم؟ فلم أرَ لي أقارب من جهتها أبدًا!

- ولا أنا، كلما حاولت سؤالهم هربوا مني، وكل ما قالوه أنها يتيمة فقدت أبويها، وأنه كان يعمل لديهم، ولم يعد يهتم بها أحد، حتى وقع أبوك في حبها وتزوجها، وكانت نِعم الزوجة.

- لقد عانت أمي كثيرًا.

- هي تعشقك يا نور، وفعلًا تغيرت فور أن أنجبتك، فقد جاءت السعادة معك.

- حقًا يا عمتي؟

- حقًا يا نور، فأنت نور حياتنا، وقد حولت أمك إلى شخص سعيد متفائل، أنت أجمل شيء في عائلتنا الصغيرة، وأتمنى أن يعود أيمن من الخليج ويتزوج وينجب لي ابنًا مثلك، لكن لا يستهين بنفسه ويُلقي بنفسه من الشرفة، ثم قامت ورفعت حاجبيها وقالت كأنها تخطب في ميدان عام:

- فكر في الانتحار ثانية وسأحرص على أن يكون موتك بيدي أنا.

ضحكتُ وضحكت عمتي.

عندما جاء الليل وجدتُ حسن قد عاد ويبدو أنه مثلي يشعر بالوحدة والخوف من الليل، نعم أنا أخاف الليل وأخاف الوحدة، وها هما قد اجتمعا معًا.

دخل حسن حاملًا لي شوكولاتة وقال:- اخترتُ لك نوعي المفضل فأي نوع تحب؟

قلتُ بابتسامة ساخرة:- أحب الشوكولاتة بالفول أو بالطعمية وممكن بالزيت الحار.
ضحك حسن حتى كاد يسقط أرضًا من الضحك ولأنه كان قليل الضحك فقد كنتُ أحب أن أراه يضحك فعلًا.
قلتُ:- أشتاق دائمًا أن أعرف نهاية قصة ريم.
صعد حسن بجواري على السرير وكانت هذه أول مرة يفعلها فمدد جسده بجواري ثم قال:-
كالعادة وكما كان، لم تكن حياة ريم في منزل خالد هنية رخية بل كانت صراع بين ندى المدللة وأمها من ناحية وبين حازم الابن الأكبر من ناحية أخرى.
قلتُ:- كيف ذلك؟ هل كانت ريم تضايقهم؟
- لا بل إن ندى أنانية بطبعها، وكانت تغار من ريم فهي أكثر تفوقًا منها في الدراسة والأهم أنها أكثر جمالًا، وتعرف حدودها فلم تكن لها متطلبات، وهو ما جعل ندى تفتعل لها المشاكل ليل نهار، في محاولة منها أن تُثبت العكس تُساعدها أمها بدافع الأمومة بقصد أو بدون، حتى صارت ريم تتجنب الخروج من غرفتها تكتفي بالرسم وكانت فعلًا بارعة في رسم الأزياء تبث فيها خوفها وضعفها.
- هل كان عمها قاسيًا أيضًا؟
لا، لكنه لم يمكث في البيت كثيرًا بحكم عمله، ومن بقي لم يكن يهتم بريم سوى الولد الصغير، ومرت السنوات وبينما كانت ريم تتقدم في الدراسة بينما كانت ندى تسوء يومًا بعد يوم، كما أن حازم دائم السهر والخروج والأم تغطي غيابهم وتلتمس لهم الأعذار، وتخفي عن أبيهم التدهور الذي هم فيه، حتى كان ذات يوم قد أقام حازم حفلة في البيت مستغلًا سفر أبيه للعمل

وكانت الأصــوات عالية، نزلت ريم لترى ماذا يحدث، فعالم الحفلات يوترها ويُشعرها بالقلق، وعندما سأل الشبان حازم عنها قال:
- قريبة من بعيد نعطف عليها بالعيش معها.
وكأنه أعطاهم الضــوء الأخضــر ليتنمروا عليها، وفعلًا حاولت المرور بينهم للصـعود، فتحرشــوا بها وجعلوها تدور بينهم حتى كادت أن تسـقط أرضًـا، لكنها فوجئت بيد تمسكها بقوة وتسحبها معها وكان حوده ورغم صغر سنه كان يصــرخ فيهم كالأســد غير مهتم بأخيه ولا بهم، وصــعد بها لغرفتها وقال لها:- لا تبكِ يا ريم، فلن أسمح لأحد من اليوم أن يؤلمك ثانية.
لكنها كانت في صدمة وحين خرج من غرفتها أمسكت بكراسة الرسوم ومزقتها وهي تبكي لكن هذه المرة كان صــوت بكائها عاليًا فقد تعبت من إخفاء دمعها.
قلت:- لماذا لم تُخبر عمها؟
- فعلًا يا نور هذا ما قررته، فعندما عاد من السفر دخل عليها غرفتها ليطمئنه عليها فجرت عليه واحتضـنته، وقد شـعرت بالأمن فعلًا فور سـماع صـوته، ففك يدها برفق من حول جسمه وقال:- ما بك يا ريم؟
صمتت ريم فترة ثم قالت:- أخاف من حازم ومن أصحابه.
- هل يضايقك؟
- نعم، بعض الشيء.
- إنه أخوك وأعدك أن أرى هذا الموضــوع، ولكن أريدك أن تعلمي أنني هنا معك.
في اليوم التالي سمعت ريم صراخ في الطابق الأول وقد نزلت مسرعة فوجدت حازم قد أخذ يكسر الأشياء غضبًا من أبيه ويقول:-

تضربني من أجل هذه اللقيطة!
قام الأب وبكل الغضب وقبض حازم من ملابسه وهو يخنقه بها ويقول:
- إنها أختك، ولها حقوق سواء رضيت أم لم ترضَ.
نزع حازم يد أبيه بالقوة ثم دفعه بنفس تلك القوة حتى كاد أن يسقط أرضًا، وهنا تدخلت الأم وقالت:- انظر ماذا فعلت بابنك يا حازم؟ وكيف جعلته ينفجر؟ وقد حطّمت ثقته فيك من أجل هذه البنت.
لم تتحمل ريم الكلمات أكثر فصعدت للأعلى، وعندما كانت في غرفتها تبكي دخلت عليها ندى واقتربت منها بشدة وريم متكورة على نفسها خوفًا وقالت بنبرة كلها تهديد:
- لن أسمح لك أن تدمري أسرتي ولو قتلتك بيدي هاتين، فإياك أن تشتكي من أحد منا ثانية، وإلا أطعمتك للكلاب.
كانت دقات قلب ريم تتسارع بشدة حتى أنها لم تستطع الرد أو حتى الدفاع عن نفسها.
- حرام، هذا ظلم، لماذا تقتلها الحياة هكذا؟
قال حسن: - نعم يا نور، ظلم ليس بيدنا حيلة! إنها الحياة.
قلت وأنا أضغط على شفتيّ بقوة:- لا أحبها.
- ليس مطلوبًا منك أن تحبها، بل أحبب من حولك وقدّم الخير لمن معك، وصدقني ستجدها جميلة بهم، فلا قيمة للحياة بدون من نحب، فعليك أن تُقدّر قيمة الأشخاص من حولك، وعندها ستجد قيمة الحياة.
سألت والشوق يأسرني لمعرفة البقية:- هل من الممكن أن تجد ريم أمها؟
وماذا حدث لفاطمة وأولادها؟

الفصل السادس
الطعنة

- مرت عدة سنوات فيها تعودت فاطمة حياة الكفاح، لكن الشدة تنبت رجالًا في النهاية، فقد دخل نوح الابن الأكبر كلية الطب وكان يحب أن يتخصص في الصحة النفسية، بينما كان البقية في مرحلة التعليم قبل الجامعي فقد حرصت على تعليمهم حتى يستطيعوا مواجهة الحياة بقوة دون خوف، وكأن الله يُعلمنا ألا نتوكل سوى عليه فهو مدبر الأمر.

ولكن الولد الأصغر محمد لم يكن يعود للبيت من شدة تعلقه بلعب كرة القدم، وأصبح البحث عنه عادة، وفشلت كل المحاولات لإعادته للبيت حتى كان ذات مساء وجد فيه نوح أمه تجلس أمام البيت وتسلم رأسها ليديها فلم يحتمل واقترب منها دون أن يتكلم وجلس بجوارها قائلًا في حنان:

- ست الكل مالها حزينة ليه؟

- تعبت من انتظار محمد كل ليلة ولا أدري ماذا أفعل له، فلا نحن نملك القدرة على إدخاله نادٍ من الأندية الخاصة بأولاد الناس ولا نحن نملك الطاقة لإرغامه على التعليم.

قال وهو يمسح على كتفها:- يا أمي لا تقلقي وإن شاء الله سيكون بخير.

عندها حضر سيد خاله بعد أن أنهى بيع الفول على العربة وكان نوح يساعده طوال تلك السنوات، فتعجب من منظر جلستهم ولم يهتم بالمارة في الحارة وجلس هو الآخر بجوارهم وهو يقول:

- موضـــوع كل يوم، هيا يا نوح نبحث عن محمد، لا بد أن نضـــع حدًا لهذا الولد الطائش.

ذهب نوح مع خاله فقط إرضـــاءً لأمه التي يتمنى أن يضـــع خده تحت قدمها تسير عليه.

وفعلًا وجدا محمد في أحد الملاعب حيث يتسلق أسوار النوادي ويلعب، ومن جمال لعبه وتميز موهبته كان له معجبون ومتابعون، والكل يتســـابق ليلعب معه حتى أن بعض الأولاد يجمعوا له مالًا ليلعب معه لأنهم يضـمنوا النصـر وهم معه.

وعندما كان الجميع في طريق العودة وجد ســـيد امرأة تقف على باب الحارة وتُنادي عليه ولأن الإضاءة لم تكن واضحة فقد اقترب أكثر فكانت المفاجأة.

اندهشت وقلتُ متعجبًا:

- من هذه؟ هل هي زوجته عبير؟

- للأســـف نعم، لكنها كانت قد ســـقطت في وحل الرزيلة حتى أصـــابها مرض نقص المناعة المكتسـب وحين تمتع بها بعضـها لفظها آخرون حين انتهوا منها فصارت تقمقم في الشوارع

حتى وصـــلت للحضـــيض وقد ظهرت أعراض المرض عليها وقد أصـــيبت بضعف شـديد، وقد عرف نوح من منظرها حقيقة مرضها فعندما همّ سيد بصفعها وهو يقول لها والغضب يُسيطر على عينيه بل تكاد تبرق وترعد:

- لكِ عين يا بنت الكلا..؟

تدخّل نوح وأمســك بخاله وقال:- لن يجدي ضـــربها بأي حال من الأحوال، انظر إليها فهي تتداعى من المرض، إنها تموت.

قالت بتوسل:- اسمح لي برؤية أولادي مرة أخيرة، أريد أن أشم ريحهم قبل أن أموت.

- للأسـف رائحتك النتنة سـتمنعك أن تشـمي رائحة الطهر والبراءة، لقد مِت عندهم منذ زمن ولم تعودي أمهم.

- لكني أمهم رغم جريمتي في حقهم ومن حقي أن أراهم.

قال وقد هدأ صـوته شـيئًا ما:- حقك تنازلتِ عنه بإرادتك ولا تملكين سـوى الدعاء لله أن يغفر ذنبك حتى لا تخسري الدنيا والآخرة.

- سامحني يا سيد وارحمني واجعلني أرى ولديّ.

- الرحمـة لم تعـد لأمثـالـك، لمـاذا لم ترحميني وأنـا سـنين طوال وليـال سـوداء

أبيت فيها حبيس دمعي وفكري؟

لماذا لم ترحميني وعيون الناس ترمقني بنظرات السخرية والبعض بالشفقة والبعض يطعن في رجولتي وكرامتي؟

لماذا لم ترحميني حين بكى الصـغير يريد أمه، والكبير حين طلب أن يحضـر هدية في عيد الأم ولم يجد سـوى أحد حوله فقرر أن يُعطيها لعمته، لأن أمه ماتت وهي على قيد الحياة، فلم تردعها عاطفة الأمومة عن أن تصـير حقيرة تتقلب في الوحل لتُشبع للآخرين شهوة الحرام،

ثم مسـح دمعه واختنقت الحروف فوق لسـانه لتخرج حشـرجات بالكاد فهمناها وأكمل قائلًا:-

إياك أن تخرجي في طريقي أو في طريقهم وإلا سـأسـرع بإرسـالك للقبر، وسأخبرهم حقيقتك حتى يلعنوك كل يوم من حياتهم.

عاد سيد بغير الوجه الذي ذهب به وكذلك نوح ولم يتكلم أحد، حتى محمد قد سـمع كل إهانات أمه بسـبب تأخره ولم يُجب، فقد كان وقع الصـدمة عليهم جميعًا عجيبًا.

قلتُ بعيون حزينة:- يا أستاذي، أتمنى أن يُسامحها ويجعلها ترى أولادها.

- لا تحدث الأمور دائمًا بالشكل الذي نحب، هل من الممكن أن تُسامح أحدًا أخذ جزءًا من روحك بأنانيته؟

- لا أعلم، لكنني سأسامح، حتى أستريح ويخلو قلبي من الهم، نعم يا أستاذي سأفعل من أجلي وليس من أجلهم.

- ليت الحياة كانت بهذه البسـاطة، ولو كانت قصـتك لتغير موقفك مع أني أتمنى ألا تفعل،

فإن تسامح من قتل روحك ليس سهلًا.

- ولماذا ليس كذلك!

- عندما تكبر ستفهم أشياء لست مستعدًا لها بعد.

- ومن قال لك أنني أريد أن أتغير عندما أكبر؟

- للأسـف كلنا يفعل، سـواء أحببنا أم كرهنا، حتى أن الظروف قد تحوّلك لشخص لم تكن تتخيله أبدًا.

- هيا ننام بعض الوقت يا نور.

- لن أنام حتى أعرف هل ماتت عبير دون أن ترى أولادها؟

- رحمة الله واسـعة، فقد رق قلب نوح لها، فبحث عنها في اليوم التالي وقد أخذ الولدين بصـحبته بعد خروج خاله للعمل، وفعلًا وجدها قد أُصـيبت بغيبوبة فسارع بطلب الإسعاف لها وقد رفض الإسعاف حملها لأنها مشردة، لكن نوح قال أنها زوجة خاله، وبعد محاولات تم نقلها للمشـفى الحكومي،

وهناك تم التعامل معها بحذر لأن نوح كلمهم عن حقيقة مرضـها وبعد تركيب المحاليل لها وبعض الإسـعافات تحسـنت حالتها بعض الوقت مما أتاح لنوح أن يُدخل إليها الولدين لتراهم، وفعلًا سلمت عليهم دون أن تقترب منهم كليًا فقد خافت عليهم مرضها وكان كالسوط الذي نزل على قلبها ليمزقه قطعًا فقد حرمها المرض حضـنهم مجبرة كما حرمتهم حضـنها طواعية حين تركتهم لرياح الصدف وأهواء الحياة.

قالت لنوح: لي طلب عندك أن تترجى خالك أن أُدفن في بلدتي حتى يجد أولادي قبري، لا تتركوا جسدي وحيدًا بين الغرباء بعد موتي، ألا يكفيكم أنني سأموت هنا وحدي!

نظر نوح لها بألم وقال:- ليس في يدي حيلة لكنني سـأحاول، وأخذ يحدثها عن ولديها وأفعالهما ولحظاتهم المميزة حتى أغمضت عينيها وهي تبتسم على أفعالهما ثم فقدت الوعي.

صمت المعلم برهة ثم أكمل:

- ماتت عبير ذلك اليوم والدموع على خدها على عكس ولديها اللذين كان لقاء أمهما بالنسبة لهما فاترًا ، فلم يذرف الصغير الدموع بينما نزلت دموع الكبير تأثرًا بالموقف أو لنقل كان يحمل من أمه بعض الذكريات، ثم انفض الجميع ولم يذهب أحد للمطالبة بالجثمان الذي انتهى به الحال في مدافن الصدقات مع المشردين وفاقدي الأهل الذين قررت بإرادتها أن تصير واحدة منهم حتى دُفنت على غير إرادتها بينهم، ولم تفلح محاولات نوح في إقناع خاله أن يرأف بجثتها وينفذ وصيتها، لكن يبدو أن الجرح الذي سببته له كان أكبر من رأفته بجسد أصبح ميتًا مثل قلبه الذي مات ألف مرة من قبل.

تألمتُ مما قاله حتى أنني أحســـســـتُ بوجع فراق أمي كأنه اليوم، وقد لاحظ أستاذي وجعي فقام وتلاعب بخصلات شعري وقال:

- ما بك يا بطل؟

- اشتقتُ لأمي.

- أنت لا بد أن تكون قويًا حتى تُســـعد أمك فهي تشـــعر بك دائمًا، الأم روح والروح لا تفارق ولا تموت.

- لا حيلة لي في اشـــتياقي لها، على عكس أخي فهو قد نســـاها، وأخاف أن أنساها يومًا ما، وأتقبل فكرة أنها لن تعود.

- لا، لن تنساها أبدًا، فأنت واعٍ كفاية ولا بد ألا تفقد الأمل.

- كم كنت أتمنى أن تلقاها يومًا! فأمي كانت جميلة في كل شيء.

قال بصوت متوجع:- ومن قال لك أنني لا أعرفها؟

- حقًا تعرفها؟

- يكفي أن أعرفك يا نور.

- هل عرفت ريم أمها في النهاية؟

- دائمًا متســـرع لمعرفة النهاية، لكن النهاية لا نكتبها نحن بل قد يصـــنعها أشخاص غيرنا.

- لا أفهم ماذا تعني؟

- دعك مما أقصد، ولأكمل لك الحكاية.

لم تعد ريم تشعر بالأمان أو بوجود السند وحتى محاولة حوده أن يُساعدها لم تؤتي ثمارها، لأنه ما زال صـــغيرًا ولا يســـمعه أحد، لكنه لم يكف عن المحاولة، فمرة يقوّي من عزيمتها ومرة يقف في وجه أســـرته محذرًا، وهكذا مرت أيام بين شد وجذب، وليتها بقيت على هذا الحال.

تســـارعت دقات قلبي وقلتُ له:- كانت ريم تعيش مع أســـرة غنية فلماذا لن تكن سعيدة، ألا يصنع المال كل السعادة.

- لا أعلم يا نور لماذا يدور تفكيرك فقط في المال، المال وسيلة وليس حلًا.

- لا أفهم.

- وســـيلة لنحيا ولكن الســـعادة تكمن في الحب وفي العطاء لا الأخذ، وفي القلوب وليس الأيدي.

- دعك مني وقل هل حدث شيء آخر؟

- نعم يا نور، لا أعلم ماذا أقول؟

مرت سنوات أخرى أنهت ريم فيها دراستها الثانوية بتفوق، وازدادت تصرفات حازم عدوانية حتى أنه كان يتحرش بها كثيرًا، ولم تجد مبرر ســـوى الصـــمت والتحمل والانطواء على نفســـها حتى أصـــابها اكتئاب شـــديد أثّر على حالتها النفســـية وأصـــبحت شـــبه منطوية وحزينة حتى كانت إحدى الليالي وقد ضـــاقت ذرعًا بتصـــرفات حازم فتوجهت مباشـــرة لعمها أثناء وجود الجميع. وقالت:- يا عم لقد اكتفيت من حازم ولا أستطيع تحمله بعد اليوم.

قال حازم موجهًا حديثه لابنه:

- ألا تتعلم أبدًا! ألم أقل لك ابتعد عن ريم؟

- ما بها ريم! أصـــبحت مجنونة من جلوســـها طويلًا بمفردها، كما أنها تتوهم، ثم استدار تجاهها وأكمل:

- للأسف لست نوعي المفضل.

قال الأب:- اخرس يا ولد وتعلم الأدب.

قالت آية:- ابني متربي أحسن تربية وفعلًا هي تحتاج لطبيب نفسي.

وهنا ابتسـمت ندى ونظرت لريم نظرة احتقار، بينما اقترب حوده منها وقال بصوت خفيض:

- أنا آسف أنني لا أستطيع حمايتك.

قال الأب:- من الآن يا حازم ستتعلم احترام ابنة عمك أو ابحث لك عن بيت آخر.

غضب حازم لدرجة احمر وجهه كالجمر ثم قال:

- تطردني من أجلها! ثم خرج مسـرعًا وأمه تجري خلفه تحاول اللحاق به لتهدئته .

قال خالد لريم التي بكت من الموقف:

- لا تخافي يا ريم سـرعان ما سيعود بعد أن يُصبح مخمورًا من تلك الأماكن التي يرتادها أمثاله.

قالت ندى:

- يا أبي أنت ترتكب جرمًا في حق أخي.

- بل أخوك من يفعل في حقنا وفي حق نفسه أيضًا، ولو تعقل لمرة واحدة في حياته لتوارى خجلًا من نفسه.

صـعدت ريم غرفتها وهي مكسـورة الجناح فما كان منها سـوى التكور على نفسـها هروبًا من ذلك الواقع المر، هي تعلم حب عمها لها ولكنها تعلم كم يصعب عليه ما يحصل من ولديه، بل تتألم أن تكون سـببًا فيما يحصل ففضّلت الصمت، وقد دخلت آية عليها خلسة وقد وضعت السكين على رقبتها وقالت:-

يكفيك تمثيلًا، ويكفيك أننا ربيناك مع أبنائنا، وأنتَ لم ترَ وجهي الآخر حتى الآن، ولن أسمح أن تصنعي سمعة لابني لأنك فقط تغارين من أولادي.

لم تنطق ريم كالعادة و حتى ألمها كان صامتًا بغير دموع، كما كان حال فاطمة ليس أفضـــل من حال ريم فلم تنسَ ابنتها يومًا، وكان كل ما يقتلها أن تموت دون أن ترى ابنتها أو تشـــم ريحها، ولكن ما هون عليها ما هي فيه أن نوح قد تخرج طبيبًا نفسـيًا وقد أصبح يكافح مع أمه في تربية إخوته فيعمل من قبل الفجر مع خاله في تجهيز الفول ثم يذهب لطريقة عندما يأتي ميعاد عمله في المشـفى المليئة بقصص أغرب من الخيال فيها يُمزج الواقع بشـطحات العقل البشـري، وقد كان نوح مسـتمعًا لكل أوجاع المرض النفسـي، يرى أن هؤلاء المرضى ما هم إلا أشخاص لم يسـتطيعوا احتمال قسـوة الحياة، أما محمد أخوه فقد التحق بأحد الأندية الخاصة بالناشئين للعب كرة القدم، وهو ما خفف الضـــغط النفســـي على أمه، لكن حياتهم كانت على قد الحال كما يقولون حيث يعمل تقريبًا كل الأولاد عوضًا عن أمهم التي أقعدوها في البيت لأنها لم تعد تتحمل عناء الشارع.

- وماذا عن سيد أخيها؟

- لم يبقَ أمامه سوى الرضا بالقدر والاهتمام بولديه وقد أصبح يحرص على أن يبقى على العربة للمساء وكأنه يبث في العمل همومه أو لنقل هروبه.

- فعلًا يا أستاذ، كلنا يهرب من شيء ما.

- نعم يا نور، فحتى ريم لم يبقَ أمامها ســوى الهروب من ذلك المر الذي تعيشـــه، وقررت العودة لبيت أبيها، بل وأخذت تفكر في ذلك ولكنها انتظرت حتى تظهر نتيجة الثانوية العامة لتلتحق بالجامعة وتســتطيع العيش بمفردها.

- اقتراح جميل ولكن هل يوافق عمها على ذلك؟

- لم تُخبر عمها بعد لكنها كانت ترى أنها لا بد فاعلة، وأن هذا هو الحل الوحيد، وقد انتظرتُ الوقت المناسب لأن الجميع مشغول بعريس قد تقدم لندى، ولا أخفيك ســرًا فقد كانت ريم تتمنى أن يوافقوا على ذلك العريس بسرعة حتى تتخلص من تقلبات ندى المزاجية.

الفصل السابع
"اغتصاب البراءة"

ولكن الحياة ما زالت تُعاند الضـعفاء بل وتضـغط على جرحهم، فقد عاد حازم مخمورًا ذات يوم فلم يجد أسـرته في المنزل، وقد علم من الخادمة أنهم جميعًا قد ذهبوا لزيارة أسرة العريس المتقدم لندى، وعندها لعب الشيطان برأسه فقال للخادمة:

- اذهبي لبيتك الليلة فأنتِ في إجازة.

ترددت الخادمة في الإجابة أو الحركة، فأمسـك حازم بغطاء رأسـها بيد وقبض بيده الأخرى على رقبتها وقال:

- لن أُعيد عليك الكلام. وقد ارتعبت الخادمة فلم تجد أمامها سـوى الهرب، بينما صـعد حازم إلى غرفة ريم وهو يُغني، وكانت ريم في الحمام وعندما خرجت وجدته يجلس على السـرير وعيناه مليئة بالرغبة وحاولت الجري للباب فمنعها مبتسـمًا، ثم حاولت أخذ هاتفها فلطمها على وجهها لطمة جعلتها تصـرخ صـراخًا يُسمِع من في القبور، لكنه ابتسـم وهو يجذبها نحوه قائلًا:

- اصـرخي لتُسـمعي أمك التي باعتك أو الأخرى التي في المقابر ثم لطمها مرة أخرى لتفقد بعدها الوعي ومعه تفقد كل ما بقي لها أو كما ظنت.

- أريد أن أقتله، كيف يفعل بها ذلك ويضربها بهذه القوة؟

صمت حسن ولم يُجب وقال في نفسه:

- ليت الأمر توقف عند الضرب لكنك صغير ولا أستطيع أن أخبرك حقيقة ما حدث، وقد غاب حسن فترة عن الحديث حتى لم يعد يسمعني وهنا قلت:- أين ذهبت يا أستاذي، فأنا أسألك ولا تجيب؟
- سامحني يا نور، فأنت لا تعلم الألم الذي أشعر به حين أتحدث عن هذا.
- ماذا عن ريم يا أستاذ؟
- لم تذهب الخادمة لبيتها بل ذهبت لشكري البواب الذي كان يعمل عند والدي ريم وأصبح يعمل لدى الأسرة الآن، والذي اتصل بهم ليخبره بما فعل حازم مع الخادمة وخوفًا أن يفعل بريم السوء، ولكنهم لم يتخيلوا أن يصل الأمر لهذا الحد أبدًا.
خرجت ريم من غيبوبتها لتدخل في نوبة هستيرية من الصراخ
وقد أصبحت في حالة صدمة عنيفة أذهلت كل من رآها، وقد سقط الأب على أقرب مقعد وكأن الكرة الأرضية كلها معلقة على كتفه، بينما حاولت آية أن تتدارك الأمر بأن تُفهم ريم أنها تهذي وأنها تتوهم ما حدث بينما خرست ندى أن تنطق من هول الصدمة، ولكن حوده كان وقع الأمر عليه مختلفًا، فقد جرى مسرعًا لحجرة أخيه ثم سحبه من على سريره حتى أسقطه أرضًا، ونشبت معركة طاحنة بينهما حتى وصلا أعلى السلم الداخلي، ولأن حازم أقوى بنية فقد أسقط أخاه من على السلم إلى الدور الأول، ليسقط حوده أمام الجميع غارقًا في دمائه، أما الأب فلم يحتمل كل ما يحدث فأصيب بأزمة قلبية لينقل هو وابنه إلى المشفى.
خرجت ريم تجري ولم تدرِ ما يحدث لها وعندما قابلت عم شكري عند البوابة كانت قد فقدت الوعي مرة أخرى فحملها وعندما حاول إدخالها للمنزل قابلته الخادمة وحكت له ما حدث باختصار وقررا الذهاب بها لعيادة

طبيب يثقون فيه ولا يُبلغ عن الحادثة وكان شــكري يعرفه لأنه يعمل في المستوصف القريب من منزله وكثيرًا ما تردد عليه بسبب حساسية صدره، وكان يعرف مدى طيبته وحسن خلقه ورحمته بالناس، كما أن المستوصف في قلب العشوائيات حيث تتكرر عليه هذه الحالات رغم أنه طبيب نفسي، لكن هذا لا يؤثر كثيرًا مع الغلابة الذين لا يفهمون كثيرًا الفرق بين التخصصات.

قد كان نوح هو الطبيب الذي يعرفه شــكري حيث يعمل في قلب الفقر ولا يهتم كثيرًا بجني المال بل يهتم بالناس أكثر، وعندما رأى نوح أخته ريم ممددة أمامه شعر بشيء تجاهها لكنه للأسف لم يعرفها، وقد فسّر تأثره لرؤيتها أنه من باب الإشفاق على مسكينة ليس معها وهي في هذه الحالة سوى البواب، ثم طلب أن يتحدث معها على انفراد.

خرج شــكري الذي ما زال يعمل لديهم وكان يبكي أنه لم يُحافظ على وصــية ســعيد الذي أعياه البحث عنه طويلًا، بينما داخل الحجرة اقترب نوح من الفتاة المنهارة وقال لها:

- من فعل بك ذلك؟

- بكت ريم ولم تملك إجابة، ولم تجدِ كل المحاولات معها أن تتكلم، ولا أدري هل الصدمة أم الخوف أم هما معًا ما أخرسها أن تنطق.

- أعطاها الطبيب مهدئًا ثم طلب من شــكري والخادمة أنها في حاجة إلى مشفى كما أنه لا بد أن يبلغ الشرطة لأن هذا اعتداء وجرم لا يمكن السكوت عليه.

استجدى شكري الطبيب أن يرى طريقًا آخر لحل هذه المصيبة دون الشرطة لكن الطبيب صمم على رأيه وقال:

- لا بد أن تأخذ هذه المسكينة حقها، بالإضافة إلى أنكما تتجنبا الإجابة عما أصابها، فلا بد من أخذها للمشفى.
نطق شكري وقال:
- هي يتيمة ومات أبواها في الصغر وأنا بواب عندهم ولا حول لي ولا قوة، و ليس لها أحد وإن ابن عمها من فعل بها ذلك.
جلس نوح من وجع قلبه الذي شعر به بعد أن قذفه بحقيقة يتمها، ووحدتها وضعفها، ومن ذا يشعر بوجع اليتم والضعف والوحدة مثله، فقال:
- لا تقلق يا عم شكري، فسأذهب معها وأتابع حالتها وسأدخلها المشفى الذي أعمل به لكن لا بُد من تقديم بلاغ رسمي لحفظ حقها.
صمت شكري ولم يُجب، في حين انتظر نوح حتى تستعيد توازنها النفسي ويسمع منها ما حدث ليبدأ العلاج.
- ما أغرب الحياة فلقد قابلت أخاها أخيرًا، لكنها لا تعلم ذلك. ما هذه القصة الحزينة يا أستاذ حسن؟
- إنها الحياة يا نور، قد يكون أمام أعيننا ما نبحث عنه طوال حياتنا لكننا لا ندري، الفكرة يا نور أن نتقبل قدرنا ولا نلعن الظروف كل يوم، بل نثق دائمًا أن الله معنا ولن يتخلى عنا، انظر إليها تعود لأخيها ليداويها ولكن ليت الجروح كلها تُشفى،
العجيب أن الطبيب لا يعلم أنها أخته، وهي لا تعلم أنه أخوها رغم أنه شعر بشيء تجاهها، كما أن شكري البواب لا يعلم أنهما أولاد سعيد الذي قضى طوال عمره يبحث عنه، ما أغرب الحياة! وكأننا في فيلم قديم لقصة مأساوية تشد قلب المشاهد وعقله لكن فعلًا خيال الكاتب دائمًا مرتبط بالواقع والتجربة.

نعم، تجعلنا أحيانًا نبحث عما هو بالفعل في أيدينا بل ونذرف الدموع أحيانًا على ألم قد يأتي خلفه الخير الكثير.

- ماذا حدث للأب وابنه؟

- دخل الأب المشفى ليتم إنقاذه من أزمته القلبية بإجراء عملية في القلب وخرج بعد أسبوعين، بينما عانى حوده من كسر في الحوض والرِجل اليمنى وكدمات متفرقة في أنحاء جسده كلها وقد قال أنه سقط من السلم رحمة بأبيه فقد كان قلبه يمتلئ غضبًا وثورة، ولكن هذا لا يُقارن بجرح ريم التي كانت جروحها النفسية طعنات تُوجّه لقلبها الصغير كلما أفاقت من غيبوبتها المتعمدة، حيث حرص الأطباء على أن تنام فترة طويلة، لأن الزمن جزء من العلاج.

بدأت التحقيقات مع تحسن حالة ريم الجسدية ولكنها ظلت صامتة لا تتكلم أبدًا، ونوح متأثر بحالتها بشدة رغم تحذيرات أساتذته ألا يتعلقوا أبدًا بمرضاهم، لكن شيئًا ما في هذه الفتاة كان يشغله، وكأن رابط الدم يُفصح عن نفسه دون وعي منا.

أما آية فقد شعرت بالراحة لأن الشرطة لم تحرز تقدمًا مع ريم، بل وحرصت على أن يسافر ابنها خارج البلاد تحسبًا لجديد، لكنها للأسف لم تشعر بأي ندم تجاه ما حدث بل كانت ترى أن ريم مخطئة على طول الخط كما كانت منذ صغرها، بينما خرج الأب من المشفى بعد أن أجرى جراحة قلبية وكانت حالته غير مستقرة مما شغل الجميع على أن يطمئنوا على المسكينة، وقد تعجّب نوح من قلة الزيارات لريم، فلم يتعرف على أحد غير شكري والخادمة مما جعله يعتقد أن هناك خطبًا ما.

- وماذا حدث لحوده؟

- لم تكن جروحه أقل ولا ألمه أهون، فقد كان لا يستطيع المشي وقد طلب الأطباء منه البقاء في السرير مدة لا تقل عن أربعة أشهر، ولم يملك سبيلًا للاطمئنان على ريم سوى من المصادر التي تُقدمها له أمه من أن ريم بخير وتتعافى في أحسن المستشفيات تحت إشرافها، كما أخفت عنه خبر سفر أخيه حتى لا يتحدث للشرطة، فقد حرصت بكل سبل الواسطة والرشاوي أن تمنع عنه متابعة التحقيق في الحادثة أو السماح لأحد بزيارته.

كانت ريم منزوية تأتي لها نوبات خوف وحزن، وصادف أن جاء العيد بعد شهرين، وقد استأجر نوح لأسرته مسكنًا جديدًا، به بعض الآدمية إلى حد ما، كما كان واسعًا لكي يعيش معهم خاله وولديه في نفس المكان، وقد حاول نوح في المشفى كثيرًا أن تحكي ريم ما حدث لكنها كانت مصابة بفقدان ذاكرة ليوم الحادثة، وكان ذلك محاولة من عقلها لتخطي ذلك اليوم، وقد كانت علاقة شكري بها قد صارت مثل علاقة أب بابنته، ولا أعلم هل ذلك لأنه عاش قصتها كاملة أم الإحساس بالذنب أنه أخبر أباها أنها ستكون بخير وأمام عينيه طوال الوقت، طلب منها نوح أن تأتي معه لزيارة أسرته في العيد وحتى يعرفها بأمه وأخوته، ولم تعترض ريم بل وافقت على استحياء فقد كان نوح يهدف من الزيارة أن تنعم بجو أسري ولو ليوم واحد كنوع من العلاج.

جاء يوم العيد وقد ذهب نوح ليحضرها بعد أن أخبر أمه عنها لكنه فوجئ بأن عم شكري قد فقرر أن يأخذها هو لبيته لتقضي العيد مع أسرته ولم تعترض المسكينة أيضًا وقد قال لنوح:- معلهيش يا دكتور بس دي أبوها سابها أمانة عندي ومينفعش تروح عند حد وبيتي موجود.

قال نوح:- أهم شيء أن تكون ريم سعيدة فإذا كانت معك أو معي فلا بأس.

ذهبت ريم مع شــكري وكان أرمل وله ولد وبنت، ورغم بســاطة المكان وقدم الأثـاث إلا أن ريم أحســت بكثير من الأمـان حتى أنها راحـت في نوم عميق لدرجة أنه مر عليها يوم وليلة وهي نائمة، وعندما أفاقت وجدت ترحابًا من أبناء شكري وخصوصًا "محمد" الذي قد أعجبه كل شيء فيها، ومع الوقت ارتبطت ريم بهم، وكان محمد يُحب الضحك ويُقلّد أصوات الفنانين، وفعلًا كان ينجح دائمًا في إضحاكها،

وبدأت ريم تشــعر تجاهه بشــعور جميل رغم أن الخوف والقلق كانا هما المسيطران عليها.

بعد انقضـاء فترة العيد، كان شـكري قد قام وأولاده بتنظيف البيت القديم الذي كان ملكًا لأبيها وفعلًا سـمح لها "نوح" بالعيش خارج المشـفى وخصوصًا أن بيتها القديم قد تشعر فيه بأمان أكثر.

عـادت ريم ولم تتركهـا الخـادمة، رغم أن ريم لم تكن تملك مـالًا فلم تـأخذ نصيبها من ثروتها فهي ما زالت قاصرًا لكن عم شكري والخادمة قررا العيش معها حتى تُكمل سنها القانوني وعندها يتقاضون أجرهما.

كان خالد كلما سـأل عليها طمأنته زوجته أنها بخير، وأنها في أفضـل مشـفى وتحت رعايتها وأنها ستأتي لزيارته حينما تتحسن حالتها.

- هل صدقها خالد فعلًا؟

- لا أعتقد ذلك، لكنه كان يخاف المواجهة وخصـوصًـا مع آية فقد حرصـت أن تنتهي قصــة ريم للأبد بينما كان يتلهف لتتحســن حالته ويبحث عنها ويطمئن عليها بنفســه، أما آية فكان لا بد من التخطيط جيدًا لتُطوى تلك القصـة، حتى أنها أحضـرت شـهادات رسـمية تُثبت فيها أن ريم مختلة عقليًا وأنها تُمثل خطرًا على نفســها وعلى من حولها، ســاعدها مالها وأســعفها

نفوذها أن يحدث ذلك في مدة قصيرة حتى تضمن صمت ريم للأبد، وأدركت أن ذلك لا بد أن يكون قبل تحسن زوجها وخروج ابنها من المشفى.

ذهبت للمشــفى حيث تم علاج ريم، وهناك قابلت نوح لتعرف منه مقدار ما حكت له ريم عن الحادث، لكنه لم يُعطها جواب فما كان ســوى أن فتحت دفتر الحساب البنكي وقالت:

- كم المبلغ الذي تحب أن أكتبه؟

نظر إليها نوح وأشاح بيده الدفتر الذي تحمله وقال:

- من قال لك أنني للبيع؟

- كل شــيء له ثمن، وأنت كما يبدو مجرد طبيب في بداية حياته وأنا أعلم الفتافيت التي تُعطي لكم وتُسـمى راتبًا، وبك أو بغيرك سـأحصـل على كل ما أريد.

تعجب نوح من كلامها ولم يملك نفسه حين قال:

- احمدي الله أنك امرأة، ولو كنتِ غير ذلك لأريتك قيمتك؟

- خرجت آية بينما نوح ظل مذهولًا يسأل نفسه:

- هل حقًا يُوجد أشــخاص هكذا يتخيلون أنهم يملكون أقدار غيرهم، ثم تذكر ريم وألمها وفهم حجم معاناتها، فضـغط على يده حتى انكســر القلم في يده وحتى أنه جرح يده دون أن يدري.

- هل ستفوز آية؟ وأين أصبحت ريم يا أستاذ؟

- الله وحده يملك القدر، لقد خرج نوح مسرعًا إلى بيت ريم وقد أخذ العنوان من ملفها فقد ســجلها شــكري بعنوانه هو وهناك وقف أمام البيت ينادي على شكري.

حكى نوح لشـــكري فخاف عليها وتأكد له أن قرار أخذ ريم لبيته لتكون بين ولديه كان الســبيل الوحيد لتبقى بأمان لذلك عرض عليه أن يذهب معه ليحضـــرها من بيت أبيها لتظل بينهم، وبقي نوح معهم طوال الليل ولا يدري كيف يترك كل شيء ويبقى مع هذه الحالة بالذات، لكنه كان يشعر أنه يُنقذ ضعيفًا من الهاوية.

شـعرت ريم للمرة الثانية أو الثالثة أو الألف بالغربة والوحدة والخوف ليس لها رفيق سوى بعض الذكريات، وصورة المرأة الريفية التي تحلم بها دائمًا ولا تعرف سوى أنها قد تكون أمها.

وقبل أن يذهب نوح طلب منه شكري أن يمر عليهم من حين لآخر للاطمئنان على ريم،

أما حودة فقد خرج من المشـــفى على عكازين وعندما دخل بيته وجده كئيبًا حزينًا خانقًا ووجد ندى قد هربت مع شــابٍ ما، ويُقال أنها تزوجته ولكن لا أحد يعلم بالضــبط أين هي؟ فلم تعبأ بما يحدث لعائلتها أو حالة أبيها بل ابتلعها الليل بقسـوته حين تدخله دون سـلاح من أخلاق أو قيم، بينما سـأل حوده أمه عن ريم، ولم تجبه بشيء وكانت صادقة هذه المرة، فلم تكن تعلم أنها عند شكري ولا أين اختفت؟

وكان كل ما فعلته أنها ارتاحت لفقدانها فحررت محضـرًا في قسـم الشـرطة تخبرهم أن هناك مريضـة نفسـية _بحكم الأوراق التي جهزتها بسـرعة وعليها عدة أختام تُثبت المرض النفسي_ قد هربت أو ضلت طريقها للبيت.

مرت أيام عصيبة أصبح بيت خالد مثل قصر مهجور من أحد أفلام الرعب، وحقًا تُظلم البيوت بالظلم وينيرها الرحمة والعدل، أما ريم فقد بدأت تشعر بالحياة في بيت شكري البسيط، تلك الراحة التي لم تجدها في القصور، ولم

توفرها النقود، وهذه الراحة كانت عندها تُساوي كنوز الكون كله، وبدأت قصة حب تنسج خيوطها بينها وبين محمد الذي كان يرى ريم ببراءتها نعمة أنعمها الله عليه.

استمر نوح بزيارتها بصفة دورية، وقد حدثته ريم عن نوبات من الصداع والإحساس بالدوار فطلب منها بعض التحاليل وللأسف تبين ما توقعه من الأعراض التي شرحتها ريم له.

- لن أحتمل أكثر، فلا تقل لي أن ريم مصابة بمرض خطير.

- لا ليست مصابة بأي مرض سوى قسوة الناس عليها، لقد تبين أنها حامل في الشهر السادس لكنها لم تكن تدري.

تعجب نور من كلمات حسن وقال له:- كيف ذلك!

- إنها إرادة الله أن يأتي طفل بريء من ذلك المغتصب غير البريء،

هل تعلم ما الغريب يا نور؟

- وهل هناك أغرب مما حدث!

- الغريب أن ريم قررت الاحتفاظ بالجنين، لا أعلم هل لأنها شعرت أنه الوحيد الذي من دمها ويحمل قرابة حقيقية معها، كما لأنها صغيرة السن وقد خوفها الأطباء من تأثير ذلك عليها.

دخل محمد ابن عم شكري عليها وعيناه مليئة بالدموع وقال:

- أنا أحبك وأريد أن أقضي كل عمري معكِ، ولن أفعل كما فعل الجميع وأتخلى عنكِ، لذلك أترجاك أن تُنزلي هذا الجنين.

- لا أستطيع، فقد أراد الله أن أحمل داخلي روحًا بريئة لا ذنب لها، وأنا أشعر أنها مني وستكون قريبي الوحيد، وإذا أراد الله له الحياة فلن أسلبها منه.

- أرجوكِ يا ريم لتفكري في هذا الطفل ومن أجله أيضًا، فكري في مصيره وبمَ ستردين عليه عندما يسألك عن أبيه.

- سأملأ حياته بكل شيء ولن يشعر بحاجة للسؤال. ثم صمتت لحظة وقامت تنظر إلى إحدى رسوماتها على الحائط وأكملت:-

لقد تخلى عني أهلي وأنا صغيرة، باعوني ولا أعلم هل لتكون حياتي أفضل كما ظنوا أم لأنهم لم يرغبوا في وجودي لدرجة أنهم رأوا أن المال أهم مني، وأنا قد سئمت من الخذلان، ولن أخذل ذلك الصغير داخلي.

- لا أحد يعرف بالضبط لماذا فعل أهلك ذلك؟

- ما يقتلني ليس أنهم باعوني بل ما يأكل من روحي ويكسر ما بقي في قلبي من حياة أنهم لم يسألوا عني ثانية، وكأنني كنتُ كائنًا طفيليًا لا قيمة له، فتركوني ورحلوا.

دمعت عين محمد وقال:

- الله وحده يعلم ما حدث وعليكِ أن تُسامحي كل من أساء إليك.

- لقد سامحتهم من زمن، لكن أتألم بين الحين والآخر، وأتمنى أن أجد أبي وأسأله سؤالًا واحدًا وهو لماذا؟

وحتى أمي لماذا حين تخلى أبي لم تأتِ لتراني ولو لمرة وحيدة؟

ثم اختنقت بالدموع فصمتت ولم يملك محمد دموعه فخرج من الغرفة مسرعًا للخارج.

ذهب محمد لأبيه شكري وقال:- يا أبي أريد أن أتزوج ريم.

- كيف يا ولدي وهي في هذه الظروف!

- سأتزوجها رسميًا ليُكتب الطفل باسمي ولن أدخل عليها حتى تضع الولد.

- قال شكري وهو يُقاوم ثقافته الموروثة:- وكلام الناس!

- لا يهمني الناس ولا غيرهم، أنا لن أتزوجها إشفاقًا عليها بل لأني أحبها.
- أهلها أصحاب نفوذ وإذا علموا سيحولون حياتكم جحيم، فهي لها عندهم إرث كبير.
- لا يهمني المال وسأحارب العالم معها، فعلًا لا يهمني إرثها ولا عائلتها أيضًا وطالما لم نطالبهم بشيء فلن يبحثوا هم عنا.
ذهب شكري إلى نوح يسأله رأيه في هذه المسألة فقال:
- محمد ابني يريد أن يتزوج ريم فماذا ترى يا دكتور؟
- لكنك تعلم أن ريم حساسة ولن تتحمل صدمات أخرى، فلتتأكد من مشاعر ابنك وأنها ليست بدافع الشفقة.
- ليست شفقة، فأنا قد أكون مجرد بواب غير متعلم لكنني ربيت ابني جيدًا فهو ثروتي الحقيقية وأعلم جيدًا ما يشعر به.
- ولكن يا عم شكري ماذا عن أهلها؟
- لن نخبرهم ولن نطلب مليمًا من ثروتهم، بل فكرت أنني لا بد أن أغير محل سكني، فهذه الفتاة وصية أبيها ولن أُسامح نفسي لو حدث له شيء آخر.
لم يكن شكري قد قص على نوح قصة عم سعيد وليته فعل، بل اكتفى بقوله أنها كانت طفلة متبناة، وخاف أن يتكلم عن قصتها فتُفهم خطأ.
دخل محمد على ريم وقال:
- هل تقبلين الزواج بي؟
ابتسمت ريم ووافقت لكنها سرعان ما تذكرت حملها فتحسست بطنها وقالت:
- لا لستُ موافقة.

تعجب محمد لكنه فهم أنها تعفيه من ثقل الحمل عليه فأخذ يدها وقبّلها وقال:

- سيكون من اليوم ابني، ويكفي أنكِ أمه ولن يكون يومًا ابن أحد آخر.

صـــمتت ريم محاولة أن تفهم أو تتفهم موقفه وتمســـكه بها رغم ما هي فيه فلم تكن حالتها النفسية في أحسن حال وإن تماسكت لكنها كما فعلت دائمًا استسلمت للقدر يخط قصتها.

تعافى حوده واستمر أشهر يبحث عن ريم أو عن عم شكري ليسأله ولكن لا أثر لهما،

ومرت شهور غيرها كئيبة مملة على حسن بينما وضعت ريم ولدًا جميلًا.

- ما اسمه؟

دخلت الممرضة وقالت:

- لقـد كتـب الطبيـب لـك على خروج اليوم وســـتُكمـل علاجـك من المنزل وسنعطيك بطاقة متابعة لتحضر مرة أسبوعيًا لنتابع حالتك.

فرحت حتى سـرت قشـعريرة في جسـدي، فأنا قد سـئمت النوم هنا وأريد أن أرجع لبيتي.

قلتُ لحسن:

- هل ستزورني في البيت حتى تُكمل لي حكايتك؟

- بالطبع يا نور من اليوم لن أتركك ثانية، كما أنني أخاف من نوبات غضـبك أيها المجنون.

اتصـــل بأبي وحملني في ســـيارته، وهناك وجدتُ جدي وعمتي والجميع كانوا ســعداء بعودتي أشــد الســعادة، وقد ســلّم حســن على جدي وقبّل رأســه، فشكره جدي على صنيعه معنا.

وكانت فرحة الجيران بي كبيرة حتى أنني سمعت زغاريد تنطلق وكأنهم يزفون عريسًا يوم فرحه،

لم تكن فرحة أبي أقل من فرحتهم، بل وكانت رائحته أجمل رائحة شممتها في حياتي، وكنتُ أنتظر تعنيف أبي خصوصًا أنني قد رجعتُ البيت، وسأصبح حملًا عليه أكثر بأدويتي وعلاجي بالإضافة لحمل أمي، لكنه لم يفعل وليته فعل.

التف الجميع حولي وقام أخي الصغير بالقفز فوقي وقال:

- هل كنت فعلًا تصطاد الحمام فوق المدرسة بيديك حتى وقعت على الأرض؟

ارتبكت ولكن عمتي لم تنتظر حتى أجيب وتوجهت إلى أبي وقالت:

- الحمد لله على عودة ابنك للبيت يا حبيبي، أتمنى من الله أن تتعافى أمه قريبًا وأن تظلوا معًا لآخر العمر.

كان اليوم حافلًا بأبناء الحارة والمرحبين وبعض الذين دفعهم الفضول أكثر من الاهتمام بحالتي ليروا كيف أصبحت، وهل حقًا لا أستطيع المشي؟ وكم ستطول فترة علاجي؟ وكان الأستاذ حسن قد أطال المكوث معنا ومرّ الوقت دون أن أشعر بوجوده فقد أصبح كأنه أحد أفراد الأسرة، فاستأذن وانصرف، واستمر الأولاد معي حتى أصابني الإعياء ونمتُ نومًا عميقًا، لم أشعر بعدها بنفسي مطلقًا.

جاء اليوم التالي وكانت المفاجأة، كل زملائي المقربين قد حضروا برفقة الأستاذ حسن ليطمئنوا على صحتي، فقد أحضرهم بسيارته ودخلوا جميعًا بيتي البسيط ولم أستحِ من شكل الحوائط ولا من ملابس أبي، والغريب أني

وجدتهم لم يهتموا بكل ذلك كما كنتُ أظن بل وجدتُ رفقاء يهتمون بي أنا، وأنا فقط، وقد سألتُ الأستاذ بكل براءة:

- من أين عرفت العنوان؟

- ابتسم بسخرية وقال:

- هل نسيت أنني أحتفظ بملفك كاملًا في المدرسة!

قلتُ له:

- أنت هنا فلتحدثني عن بقية حكاية ريم.

ليس الآن، لأن أصحابك سيتأخرون عن الحصص وأنا طلبت ساعة واحدة لهم.

قال عادل:

- نريد أن نسمع كلنا، هيا يا أولاد قولوا نريد حكاية ريم.

دخل أبي على صوت الأولاد وهم يقولون حكاية ريم، لكنه كان شاردًا بذهنه فاتحًا عينيه مرتبكًا وقال مخاطبًا الأستاذ حسن:

- ماذا يحدث؟ ومن ريم؟ أنت حوده؟

تلعثم المعلم وجمع الطلاب واستأذن للانصراف ولم يُجب على سؤال أبي.

فأسرعت وقلتُ لأبي:- إنها حكاية كان المعلم يقصها عليّ وأنا في غيبوبتي.

لكن أبي لم يسمعني بل خرج خلف المعلم مسرعًا، وقد أحسستُ أن أبي قد أصابه جنون ما،

وجدتُ عمتي تُنادي أبي وتُهرول خلفه، وأنا أدعو الله ألا يحرجوني أمام أصحابي فناديتُ بكل قوتي وحاولتي أن أقوم من سريري لكن قدماي قد خانتني فسقطتُ على الارض وما زلتُ أحاول استيعاب ما يحدث حتى دخل أبي وأسرع نحوي وحملني وقال:

- لن يقترب منك هذا الرجل ثانية، وأنت لن تقترب منه أبدًا يا نور، إياك أن تفعل.

قلتُ له:

- حياتي مليئة بالألغاز ولن أسمح أن أعيش هكذا،

ماذا يحدث يا أبي؟ من أين تعرف الأستاذ حسن؟

لم يجبني أحد، بل كل ما قاله بعد صمت مرعب:

- لن أتكلم ثانية في هذا الموضوع

ولن تسأل مرة أخرى. ثم كان صوت ارتطام الباب هو كل ما سمعته.

دخلت عمتي وجلست بجواري فقلتُ لها:

- بالله عليك يا عمتي قل لي ماذا يحدث؟

قالت وهي تواري عينيها:

- أنا مثلك أتعجب من تصرف أبيك، ولكن علينا أن نتركه يهدأ ثم نفهم منه ماذا يحدث؟

بكيتُ كثيرًا يومها وغضبت لدرجة الجنون وقلتُ لنفسي:

- كيف يحرمني أبي من معلمي؟ ولماذا يغضب هكذا بدون سبب!

وكاد عقلي ينفجر حتى دخل جدي حجرتي وقال:

- لقد أصبحت كبيرًا كفاية لتعرف من أنت.

- من أنا؟ ألستُ ابنكم!

- نعم أنت قطعة منا، ولكن أشياء كثيرة لا تعرفها، وقد حاولنا كثيرًا أن نُخفيها في قاع قلوبنا لكنها ما تلبث أن تصعد للسطح رغمًا عنا.

- ما هذه الألغاز يا جدي؟

- للأسف ليست ألغازًا، إنها الحقيقة، أن حسن هذا..

الفصل الثامن
الحقيقة

صمت جدي كثيرًا ولا أعلم لماذا صمت أيضًا فلم أملك الجرأة لأسأل كما لم يملك الجرأة ليُجيب، ومرت لحظات حتى قال:

- أنا كما تعلم كنتُ أعمل بوابًا عند أسرة غنية، وكانت السيدة ليلى لا تُنجب وقد طلبت من سعيد الجنايني أن يُعطيها ابنته.

- جدي، أنت من أخذت ريم وأبي من تزوجها؟ لكن مهلًا أمي اسمها منى؟

- لا، لقد كان هذا اسمها بعد التبني وهو الاسم الذي اختارته السيدة ليلى لها، وأخفينا عنك شهادة ميلادك حتى لا ترى بقية اسم أمك خوفًا من أن يستدل أحد على مكان أمك، ويحرمونها من أن تعيش الحياة التي اختارتها لأن السيدة آية كانت تُريد وضعها في دار للرعاية النفسية.

- أمي أنا! مسكينة يا أمي يا ليتك بقيتِ حتى تعرفي أنني كنتُ سأحميكِ ولن أسمح لأحد أن يقترب منكِ أبدًا.

ثم بكيتُ وحضنتُ جدي حتى أنني ظللت متعلقًا به كثيرًا، حتى تمنيتُ أن أغوص داخله ولا أرجع أبدًا. وبعد فترة جمَّعتُ أفكاري وقلتُ:

- ومن حسن؟ وما علاقته بي؟

- إنه عمك، فقد تواصلتُ معه قبل حادث أمك وبعد الحادث هذه كانت وصيتها في المشفى حتى تطمئن أنه سيعرفك وكانت متأكدة أنه سيكون بجوارك كما كان دائمًا بجوارها، ولم أعلمها أنني قد أخبرته من قبل عندما التقيته في منزل جدك لأنني عشتُ معه وأعلم كم كان يُحبها ويخاف عليها، ولو كان كبيرًا بعض الشيء وقتها لاختلف كل شيء.

نظر في عيني بعد أن طلب مني أن أرفع رأسي وقال:

- أريدك ألا تنسى أبدًا أنك ابننا ولن يستطيع أحد تغيير ذلك ما حيينا.

- أنا ابنكم ولا أريد أن أكون غير هنا، فلماذا أخفيتم عني الحقيقة؟

- لقد أخفينا عنك الأمر حتى تكبر وترى هل تستطيع مسامحتهم وعيش حياتك.

- هل عرفت أمي مكان جدتي فاطمة وهل قابلتها؟ ولماذا أخفيت على أبي أن حسن يتواصل معك؟

- أعلم أن لديك آلاف الأسئلة لأني متأكد أنك شديد الذكاء، ولكن عليك أن تهدأ وأنا سأحكي لك.

- لماذا كل حياتي هي حكايات تصلح أفلامًا هندية، ففيها مبالغات لا تحدث إلا نادرًا وللأسف هي حياتي.

- تلك هي الحياة قد نعيش فصولها الأربع وقد نُعلّق في أحد الفصول ما حيينا، ويبدو أننا قد عشنا شتاؤها بكل تفاصيله ولن أطيل عليك.

ففي يوم شتوي بارد كنتُ قد تركتُ العمل عند عائلة أمك حتى لا يستدلوا عليها، ولكني لم أقطع زيارتي لمنزل جدك عارف بين الحين والآخر، فكنتُ متأكدًا أنه خالٍ من أي أحد وبالرغم من ذلك كانت ذكرياتي وطفولتي مع أبي كانت في ذلك المنزل، وكنتُ يومها مخنوق من أشياء كثيرة في حياتي ولا أعلم لماذا كلما ذهبت لذلك البيت وتحدثت مع أسواره وحوائطه أجد راحة كبيرة وشعور بالهدوء، وكانت معي نسخة من المفاتيح، وأثناء جلوسي في الشمس بجوار شجرة في الحديقة كما تعودت دون أن يشعر بي أحد لكن تلك المرة كانت مختلفة فقد سمعت صوت بكاء يأتي من خلف نافورة المياه الجافة في الحديقة، ولأول مرة أشعر بالرعب فلا أحد هنا، ولكنني استجمعتُ قواي

وذهبت فوجدتُ حسن جالسًا على الأرض يبكي أمك، وأحسست وقتها أنه سيجن أنه لا يعلم عنها شيئًا، وقد علم أن أخاه قد ارتكب جريمة قتل في خارج البلاد، وقد طعنته إحدى العصابات في شجار بسبب ما فعله، ومات ولم يبقَ سوى حسن، فقد كان ظلمهم لأمك كاللعنة التي دمرتهم جميعًا.

أما حسن فهو الوحيد الذي كان يُحبها بصدق في ذلك البيت لذلك قلتُ له أن يطمئن وأن أمك في أمان وأنها تزوجت وأنجبت ولدًا جميلًا أسمته نور، لينير حياتها المظلمة.

وقد طلبتُ منه أن يدعها لحالها، ووعدني أنها طالما سعيدة لن يعترض طريقها أبدًا، لكنه طلب أن يراها من بعيد كل فترة ليطمئن عليها من حين لآخر دون أن تراه،

وكيف عرف طريق مدرستي؟

المدرسة أصلًا ملكًا له، فقد اشتراها خصيصًا من أجلك وطلب مني أن أُدخلك فيها على أساس أنك حصلت على منحة لأنك ذكي ومتفوق، وهذا لا يعني أنكَ لست كذلك لكنه فعل ذلك كي يكون قريبًا منك كفاية دون أن يُثير شكوكك، فكل هذا المال هو ملك لأمك في النهاية.

مال أمي!

نعم، فأمك تملك الكثير من المال، ولكنها فضلت العيش هنا بيننا، وبيننا ذاقت لأول مرة إحساس الأسرة، وقد احترمت رغبة أبيك ألا يطلب أبدًا نصيبها من ذلك المال الذي كان سببًا في شقائها، وأن نترك لك الأمر عندما تكبر لتقرر بنفسك.

- هل يكون المال سببًا للشقاء!

- يكون يا نور، يكون.

هل عرفت أمي طريق جدتي فاطمة؟

فاطمة! من قال لك أن جدتك اسمها فاطمة؟

- حسن حكى لي عنها.

خرج جدي مسرعًا بكل ما استطاع من قوة لينادي على أبي قائلًا: نعم لقد تذكرت، فقد ذكر لي سعيد اسم زوجته فاطمة، فتحضروا حسن أريد رؤيته، أريد حسن.

صُدم أبي لقرار جدي وقال:

- لا، لا نريد أحد فقد طوينا صفحة الماضي وقد ضاعت مني كل حياتي مع فقدان ريم.

نظر جدي لأبي الذي أخذ في البكاء ثم قام وجلس بجواره وقال:

- القرار ليس ملكك وحدك، الماضي لن يُطوى وهناك أم مسكينة لا تدري أين ابنتها! ولا أن لها أحفاد من حقها أن تراهم، أعلم أنك غاضب يا بني ولكن رغم الغضب يبقى سؤال يلح علينا من يملك الحق في حرمان الولدين من جدتهما؟ ألا يكفيهما حرمان!

اتصل أبي بحسن تحت ضغط من جدي، وقد تمنيتُ أن أستطيع السير لأرى جدتي وأخوالي وأشم فيهم رائحة أمي.

حضر حسن سريعًا كما توقعت، وهذه المرة لم تكن مثل كل المرات فنظرتُ إليه كأني أرى قسمات وجهه لأول مرة وسرعان ما ارتمى في حضني مقبّلًا وجهي، وكان من الطبيعي أن أفعل أنا ذلك وليس هو، لكنني لاحظتُ صمت أبي ونظرته للأرض منكسرًا وكأن زهرته التي رعاها طوال عمره وأخفاها عن الجميع توشك أن تتناقلها الأيدي، فحاولتُ الحراك لكي أقوم إليه وأحتضنه وأخبره أن مكانه في قلبي ولن يأخذه أحد أبدًا.

قطع جدي الصمت وقال:

- أخبرني نور أنك تعرف جدته وأخواله.

قال حسن:- يوم حادثة نور وذهابي للمشفى تقابلت هناك مع طبيب يُسمى نوح يعرفكم، وقد ذهب للاطمئنان عليه مثلي، وعندما تجاذبنا الحديث وجدته يعرف قصة ريم، وأنه كان يُشرف على علاجها النفسي، وعندها عرفته بقصتنا معها وما حدث لها خرَّ باكيًا غير مصدق نفسه نادمًا أنه طوال تلك السنوات لم يسأل عن قصتها بالتأكيد، حتى أنه كان يشعر بشيء تجاهها لكنه لم يتوقع أن الدنيا صغيرة إلى هذا الحد وأن أخته الصغيرة كانت أمام عينيه طوال الوقت ولم يتعرَّف إليها.

تدخَّل محمد في الحوار وقال:

- أخبرني نوح أنها أخته التي يبحثون عنها طوال حياتهم لكنه لم يخبرني عنك يا حسن.

- قال حسن والفرح يتراقص في عينيه

-: أنا طلبت منه ذلك، حتى أجعل نور يتعرف عليّ أولًا بأن أحكي له القصة دون تحيز، ثم أترك له الحرية في اختيار القرار الذي يريد.

- لماذا لم تأتِ جدتي لزيارتي حتى الآن؟

- قال حسن بنبرة هادئة:

- لأن نوح رأى أن من الأفضل أن تتحسن حالتك أولًا ثم نأخذك لجدتك، ومن هناك نذهب جميعًا لزيارة قبر أمك، فلم نكن نقدر أن نبلغها بحالة كليكما.

قلتُ لهم والدمع يسبقني وقد قمتُ منتفضًا:

- لا لن أنتظر، احملوني معكم لأراها، فكم أشتاق لحضن يشبه حضن أمي! كما أنني اشتقت لأمي وأريد زيارة قبرها.

اتصل "حسن" بخالي "نوح" وعرف منه العنوان، وأخبره أن يكون بانتظارنا، وذهبنا جميعًا مع حسن في سيارته وعندما وصلنا هناك، وجدتُ أشخاصًا كثيرين، ولكن وجه واحد من بين تلك الوجوه هو ما تعلقت به عيناي، وقد كانت سيدة كبيرة تخطت الستين أو هكذا ظننت، تحمل وجهًا بريئة تفاصيله، وكانت تجلس وكأنها تداعب عالم آخر، فقد كانت زائغة العينين، وقد أختبأ حزن دفين خلف تلك العينين الجميلتين، وقد جريت وارتميت في حضنها لأني أعرف هذه العيون جيدًا وأعرف أنها هي الأخرى تعرفني!

فحتى قبل أن يخبروها أنني ابن ابنتها "ريم" وقد اقتربت مني بحذر وهي مقوسة الظهر لكنها لامعة الأعين حتى أنني لمحتُ الحزن يذوب خجلًا من الموقف، ثم وضعت يمينها على كتفي واشتمت شعري في حين صمت الجميع حين نظرت لعيني وأحست بأنفاسي وقالت والكلمات تتوه منها:

- هذه العيون أعرفها. وتعثر الصوت بالدمع وزغردت الأعين فرحًا حين أردفت:

- ابن ريم، نعم أنا أشعر بك وبها في رائحتك! ثم التفتت حولها ونظرت لبقية العيون وقالت متحيرة:

- أين حبيبتي، ابنتي الصغيرة! ابنتي... ثم أغمي عليها.

لا أستطيع أن أصف ما حدث رغم مهارتي في اللغة، وحرصي أن أكون كاتبًا بليغًا يكتب لأول مرة قصة، لكنها مختلفة هذه المرة عن رواية أي كاتب، فهي حياتي في سطور، ورغم كل ذلك أجدها عاجزة أن تحمل الكلمات مشاعري، أو تصف فرحتي بلقاء جدتي،

ما أجملها ريح الأم! وما أقساه إحساس الفقد!

انهارت جدتي وخارت قواها، وكأنها تبكي أمي لأول مرة وكأنني أشاركها يوم فقدها، وبعد صراع مع القلب ومع الذكريات هدأت جدتي التي لم تفقد الأمل يومًا أن تجد ابنتها حتى ولو كانت جثة في قبر، فيكفي كما قالت أن تعرف أنها ليست فقيدة الشوارع ولا تُعاني مرارة اليُتم،

صمتت جدتي أن تذهب للمقابر حيث أمي الغائبة كل تلك السنوات، وقد كان، ولأول مرة حملت ضمت جدتي رائحتها ولمست بقلبها حوائط تعلم يقينًا أنها تحوي ابنتها،

وعندما عدنا في المساء، رأيتُ أمي تدخل علينا مثل ملاك جميل أو أميرة لا ينقصها شيء من الحسن، واقتربت من جدتي وقبّلتُ كل جزء فيها، وطار وشاحها الأبيض الذي امتزج نوره بالنور المنبعث من وجه أمي حتى صار النور ساطعًا جدًا، ثم أحاط بي وبأخي وجدتي وكأنها هالة من نور تحيط بنا، نور عودة أمي.

الفصل التاسع
"العودة"

مرت شهور بعد ذلك، استردت فيها جدتي اتزانها، وتقبَّلت موت أمي أو هكذا تماسكت فبدت متقبلة، مع أني تعلمت أن موت الابن شيء لا يُمكن تقبّله أبدًا، وأنه يأخذ شيئًا من روحك معه للقبر فكما عاش جزءًا منك معه فإن جزءًا أكبر منه يموت معه، لكنها مع الوقت تماسكت، ولا أعلم هل ذلك بفضل صوتي الذي لم يُفارقها منذ لحظة اللقاء، أم لأن ذلك الصوت يشبه صوتًا كانت سنوات تنتظره، أم هناك فعلًا تواصل سري بين الأم وابنها حتى بعد فراق أحدهما.

تعافت جدتي تقريبًا مع أنه مستحيل، وتعافت معها نفسي المُتعبة بعض الشيء.

ولقد تعلمت حين حصلت على مال أمي أن المال لا يصنع السعادة وحده، وأن هناك أشياء كثيرة لا يُمكن للمال أن يشتريها فقد يشتري الملابس والتحف ولا يشتري لمسة أم أو حب أخ أو طاعة ابن.

تعلمتُ أنني لستُ في حاجة لأكون قرشًا مفترسًا كي أعيش، يكفي أن أكون دولفينَ يُغني يلهو كي يحيا ويُحب.

حضر اليوم السيد خالد وزوجته السيدة آية لرؤيتي وقد قابلتهم فقط من أجل حسن، لكن هذا لا يعني أنني أسامحهم كل المسامحة لكني أحاول مع

أنني أشك أنني أستطيع يومًا أن أسامح فأنا لستُ ملاكًا لكني بشرًا، وكوني بشرًا يعني أن هناك جزءًا من نفسي يتمنى أن أنتقم لأمي، نعم أنتقم من كل من سرق منها فرحتها وبراءتها لكنني أغالب نفسي، وذلك ليس من أجلهم بل من أجل نفسي، فكي أعيش سعيدًا يجب أن أتعلم العفو، ولا أقول أنني مستعد له لكنني أحاول!

وفي النهاية لقد تصالحت الدنيا معي أو تصالحت أنا معها، وعشت مع جدتي بل وكل أسرتي في بيتنا الكبير، بيت أمي كما أن حسن هو الوحيد من أسرته التي سمحت له أن ينتقل للعيش معنا، وقد صمم جدي ألا يجلس على بوابته غيره، ورغم رفضنا لذلك، لكننا رضخنا جميعًا لأنه يحب ذلك، نحاول أن نجعل البيت واحة من الحب، جمعتنا فيه روح أمي التي أشعر بها ترفرف فرحًا بيننا.

لن أقول أن جدتي أيضًا قد سامحت السيدة آية وزوجها، لكنها لم تذكرهم بسوء أو لم تذكرهم أصلًا، وقد كبر أخي الصغير بين أحضان عمتي وجدتي، وقد أحسست براحة كبيرة ورضا فكل الناس لها أم واحدة ونحن لنا اثنان، أما اليوم فقد أنهيت دراستي الثانوية كما أنهيت روايتي الأولى وأسميتها "الدولفين"، كما أعلنت وضع أول لبنة أنا وحسن في مشروعي الجميل لبناء دار أيتام كبيرة في حديقة المنزل الواسعة، فهنا مكان لكل من لا مكان له من القلوب البريئة التي قذفتها الدنيا لكننا سنتلقاها برحمة وبكل حب أو على الأقل سنحاول.

وقد كان هذا اليوم أيضًا مميزًا أكثر فهو زفاف صديقي "أيمن" ابن عمتي بعد عودته من الخليج وقد دعوت كل أصـــدقائي وبالطبع أنتم تعرفوهم (عادل ومصـطفى ونيجار) الذين أصـبحتُ أُقدّر وجودهم بجانبي، وأدعمهم ليظلوا صامدين في زمن لم يعد يُبقي مكانًا للضعفاء لذلك لا بد أن نصير أقوى ولا يهمني أن أصــير غنيًا، فأنا فعلًا غني بكل من حولي، وبقلوبهم الطيبة، بل هم ثروتي الحقيقية.

لسـتُ واثقًا مما هو قادم لكنني لسـتُ خائفًا أيضًـا لأنني على يقين أن القادم هو قدر الله وقدر الله لا يأتي إلا بخير.

تمّت بحمد الله.



ج.م.ع
الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

Mobile: 01024541339